الكتاب الماسي
قصص عربية

تاريخ ما أهمله التاريخ

الجنة في ظلال السيوف

حبيب جاماتي

اهــداء

الى العاملين فى حقل المحبة والاخاء ، بصدق وأمانة واخلاص ، من أجل احلال السلام بين الشعوب ، واقامة التعاون بين الدول ، باستئصال أسـباب الحروب وعواملها ، واعادة العدالة الى نصابها ، والحقوق الى اصحابها ، أهدى هذه الأقاصيص التـاريخية ، التى وقعت حوادثها فى عصور تختلف عن عصرنا ، طبع فيها الصراع بين الأمم بطابع الدين ، أو اتخذ فيه الدين أداة لخدمة السياسة ، فاقتتل الناس فى غماره وتناحروا سعيا الى الجنة فى ظلال السيوف !

مصر ... ح.ج

تصدير

بين دفتي هذا الكتاب ، عشرون قصة هي الحلقة الخامسة من سلسلة « تاريخ ماأهمله التاريخ » التى اصدرت منها « الدار القومية للطباعة والنشر » حتى الآن ، فى كتابها « الماسى » اربع حلقات على التوالى :

الحلقة الاولى بعنوان : « بطولات عربية »

والحلقة الثانية بعنوان : « الناصر صلاح الدين »

والحلقة الثالثة بعنوان : « مصر مقبرة الفاتحين »

والحلقة الرابعة بعنوان « أندلس العرب »

وقد اخترت لمجموعة الحلقة الخامسة هذا العنوان : « الجنة فى ظلال السيوف ! » لأن القصص التى انطوت عليها تروى طائفة من الوقائع استقيت تفاصيلها من هامش التاريخ ، فى نطاق الحروب التى كانت العاطفة الدينية محورها ، وكان العامل الدينى سببها أو محركها أو هدفها ، أو ستارا لها ، يخفى وراءه ما يخفيه من عوامل أخرى ، اقتصادية ، أو سياسية أو استعمارية ، قبل أن يطلق على « الاستعمار » هذا الاسم !

فى بعض تلك الحروب التى طبعت بطابع الدين ، كانت الفكرة الدينية صافية ، وكانت العاطفة الدينية خالية من الشوائب . وفى بعضها كانت الفكرة والعاطفة غير صافيتين وغير خالصتين من العيوب .

ففى خلال الحروب الصليبية ، مثلا ، لم يجد الصليبيون النصارى القادمون من الغرب ، حلفاء لهم بين الروم النصارى أصحاب دولة بيزنطة . بل حارب كل فريق من الاثنين الفريق الآخر ، فى حين أن المسلمين فى الشرق كانوا يحاربون الفريقين معا . وفى الوقت الذى كان فيه العرب المسلمون فى الشرق يقاومون الغزو الصليبى خلال مائتى سنة كان عرب الاندلس المسلمون فى الغرب يتحالفون مع جيرانهم النصارى ويتخلفون عن نجدة اخوانهم فى الدين . وكان الترك والتتر المسلمون يتسابقون لانتزاع الشرق الادنى من اصحابه العرب المسلمين . وفى أوائل القرن الميلادى الثالث عشر ، تحولت الحملة الصليبية القادمة من الغرب بطريق البر عن طريقها الى سورية ، فاحتلت القسطنطينية وأقامت فيها دولة مسيحية لاتينية على أنقاض الدولة المسيحية الرومية

واذا كان فريق من نصارى الشرق قد انضموا الى الروم فى مقاومة الفتح العربى الاسلامى فى مطلع انطلاقه ، فان فريقا آخر

من اولئك النصارى ، وبخاصة العرب منهم قد انضموا الى الغزاة القادمين من الجزيرة ، لمحاربة الروم : كان هذا الفريق مدفوعا بالعاطفة القومية ، وكان ذاك الفريق مدفوعا بالعاطفة الدينية ٠

وقد تكررت هذه الظاهرة اكثر من مرة فيما بعد ، خلال الحملات الصليبية المتتابعة ، فاصغى فريق من نصارى الشرق الى صوت الدين ، دون نداء القومية ، واصغى فريق آخر الى صوت القومية دون نداء الدين !

لقد اصبح كل ذلك صفحة من صفحات الماضي . واصبحت الحروب الدينية في ذمة التاريخ ...

وفي هذه الاقاصيص ، أمثلة من هذا القبيل ، تدعو الى التفكير ، في هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر النهضة والبعث والانطلاق والتحرر ...

فالقومية العربية تسير الى الامام في موكبها الرائع ، وقد صهرت في بوتقتها الواحدة ، العناصر والاديان والمذاهب والطوائف ، بعد أن تحررت أوطان العرب في المشرق والمغرب من الحكم الأجنبي وخلعت نيره ، سواء أكان ذلك الغريب تركيا مسلما حط عليها بجوره حقبة من الدهر باسم الدين ، أم غربيا مسيحيا تحكم في مصيرها ، واستأثر بخيراتها ، واستغل مواردها ، مدفوعا بعامل المصلحة حينا ، وحينا آخر بعامل مزدوج تختلط فيه السياسة بالدين !

القاهرة

محرم ١٣٨٢

يونيو — حزيران ١٩٦٢

حبيب جاماتي

دراهم
ودنانير

كيف ومتى صدرت العملة العربية الأولى وعليها كلمتا : «الله صمد..» ولاى غرض استخدمت للمرة الأولى.

سر بسلامة الله وتوفيق من عنده يامحمد ! .. واننى أكرر توصيتى اليك ، وهى أن تدعو الروم المعتدين الى حقن الدماء ، قبل ان يلتحم الجيشان فى حرب لا يعلم غير الله مدى شدتها وعدد ضحاياها .. واذا ظلوا على عنـــادهم ، فقاتلهم ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وارفـــع على سنان الرمح ، فى طليعة جيشك وثيقة المعاهدة التى بيننا وبينهم ، والتى مزقوها وخانوا نصوصها !

بهذه العبارات ودع الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان أخاه محمد بن مروان ، فى أطراف غوطة الشام ، يوم خرج منها عند الفجر فى طريقه الى حدود الدولةالشــمالية ليتولى قيادة الجيش العــربى المكلف بحراستها ، ورد الجيش الرومى الزاحف فى اتجاهها ، بقيادة الامبراطور جستنيانوس الثانى

سبب تلك الحرب التى أطلقها الروم من عقالهـــا ، اقدام الخليفة على صك الدنانير والدراهم ونقشها باللغة العربيــة للمــرة الاولى . والدافع الى ذلك العدوان ثورة الحقد وفورة الكبرياء والصلف فى صدر الامبراطور

كان العرب فى الجاهلية ، وظلوا بعد الاسلام ، فى عهد الخلفـــاء الراشدين والاربعة الاولين من خلفاء بنى أمية ، يتعاملون فى داخــل حدود دولتهم الشاسعة ، ومع جيرانهم من الشعوب الاخرى ، بالنقد الاجنبى ، المنقوش باحدى اللغتين الفارسية او الرومية . ولما تولى عبد الملك بن مروان العرش فى سنة ٦٥ من الهجرة ، الموافقة لسنة ٦٨٤ من الميلاد ، كان العرب فىحرب مع الروم ، وعز على الخليفة ان تظل الدولة محرومة من نقد خاص بها ، وقرر أن يعالج الأمر بما يقتضيه منحزم وعزم

وفى سنة ٧٠ الهجرية ــ ٦٨٩ الميلادية ــ انهى الحرب وصالح الروم على ان يؤدى للامبراطور الف دينار فىالاسبوع ، تعويضا له عن تنازله عن السيادة ، على رقعة طويلة من الارض المتــــدة على طول الحدود بين الدولتين .

واحترم الطرفان ما نصت عليه معاهدة الصلح . ومرت أعوام ساد فيها السلام والوئام ...

ثم تغيرت الحالة فجأة ..

فى سنة ٧٣ الهجرية ــ ٦٩٢ الميلادية ــ أنشأ عبد الملك بن مروان

دارا لصك العملة ، وأصدر الدنانير الذهبية والدراهم النحاسية ، منقوشة باللغة العربية ، وتحمل كلمتى : « الله صمد . »

وفى تلك السنة ، أرسل الخليفة الى القيصر قيمة التعويض بالدنانير العربية بدل الدنانير الرومية ، فرفض جستنيانوس الثانى قبولها ، ونقض المعاهدة ، وأمر جيشه بالزحف ، فاجتاز ثلاثون الفا من المرتزقة الصقالبة حدود قيليقية ، بقيادة اسطفان الهنغارى ، ورابطوا عند مدينة سوبسطة ـ وهى اليوم « سيواس » من أعمال تركيا ـ ولحق بهم الامبراطور نفسه ، على رأس فرقة الحرس الخاص !

فوجىء الخليفة بهذا العدوان ، وأسرع فاتخذ للأمر عدته ، ووجه الى الحدود جزءا من حاميات المدن ، وعهد بالقيادة الى أخيه محمد بن مروان ، فخرج من دمشق على رأس قوة من الفرسان ، وجد فى السير الى موطن الخطر ، بعد أن وعد الخليفة بأن يعمل بنصائحه .

***

ضرب الجيش العربى مضاربه على مقربة من سوبسطة ، فى بقعة من الارض اختارها محمد بن مروان ، تصلح قاعدة للهجوم أو معقلا للدفاع ، حسب مقتضيات الحال ، وراح القائد المحنك يرسم خطة المعركة المنتظرة ، حاسبا لكل أمر حسابه ...

من ذلك المكان ، كان يرى من بعيد خيام المعسكر الرومى والنيران الموقدة حولها فى أثناء الليل .. ويستدل منها على ان الروم يفوقون العرب بكثرة عددهم ، ووفرة الخيول لديهم ..

ولما اكتمل حشد الكتائب العربية فى اليوم الثالث من وصول الطليعة الى مشارف سوبسطة ، دعا محمد بن مروان معاونيه المقربين الى مجلس عقده فى خيمته ، للتداول معهم ، والاستنارة بآرائهم

واتفقوا على الخطة التى رسمها ، وتعهدوا له بتنفيذها ، وعرف كل واحد منهم ما هى المهمة الملقاة على عاتقه ، قبل المعركة وفى خلالها ومن بعدها .

وقبل أن يتفرق المجتمعون ، دخل حاجب واخبر القائد العام بأن ستة رجال وثلاث نساء وصلوا الى المعسكر قادمين من بلاد العدو وانهم يلحون فى طلب المثول بين يديه

وقال الحاجب :

لقد جردناهم من سلاحهم يامولاى ، وفتشناهم بدقة ، تجنبا لكل مفاجأة

فأمر محمد بن مروان باحضارهم الى الخيمة ، وطلب من معاونيه أن يبقوا معه ، ليعرفوا مثله ماذا يريد أولئك الاغراب .

تكلمت باسمهم واحدة من النساء الثـلاث ، بلغة عربية سليمة ، فروت للقائد العربى قصتهم جميعا ، والدافع الى مجيئهم الى المعسكر

التسعة ينتمون الى ثلاث أسر من نصارى سورية الفساسنة العرب نزح افرادها الى بيزنطة قبيل الفتح العربى .. فتزاوجوا ، وانجبوا ، ومات من اولئك المهاجرين من مات ،وبقى منهم التسعة على قيد الحياة

كلهم مرتبطون بعضهم ببعض بأواصر القربى والرحم . وأصغرهم سنا الفتاة التى تكلمت باسمهم ، « هند » ابنة الفضل بن سيار

رفضت أن تتزوج ضابطـا من ضبـاط الحـرس الامبراطورى ، فخطفها وقتل اباها وأمها وذهب بها الى داره بجوار القصر . ولكنها انتقمت لوالديها من القاتل لما هم باخضاعها لمراده ، فذبحته بيـدها ، وهربت من الدار ، ولجأت الى أقاربها الذين قرروا الرحيل معها عائدين الى وطنهم وقومهم

وختمت الفتاة روايتها المثيرة قائلة :

ـ والآن أيها القائد العظيم ، ترانا تسعة رجال ونساء بين يديك ، وهم البقية الباقية من ابناء الاسر الثلاث وبناتها ... جئنا نبغى الامان والاطمئنان فى البلد الذى منه ذهب آباؤنا وأجدادنا ، وقد انتقل من حكم الروم الى حكم العرب . ولكننا نتوق ـ قبل أن نبلغ مرابع الفساسنة ـ الى الاشتراك معكم فى قتال الروم ، سعيا وراء ثأر نرى أن ما تحقق منه بقتل الضابط الباغى ، ليس كافيا لشفاء الغليل !

صافح محمد بن مروان الوافدين عليه من وراء الحدود واحـدا واحدا ، ووواحدة واحدة ، وهنأهم على نجاتهم من نقمة الروم ، ورحب بهم ضيوفا عليه ، وتمنى لهم أن يحققوا ثأرهم كاملا فى حومة المعركة ، اذا ما دار القتال بين جيشه وجيش جستنيانوس

عملا برغبة الخليفة ، أوفد محمد بن مروان ثلاثة رسل الى القيصر لدعوته باسمه الى حقن الدماء واحترام المواثيق والعمل بنصوص المعاهدة المعقودة بين الطرفين ..

لكن جستنيانوس الثانى ، بعد أن استمع الى ما قاله له الرسـل باسم خصمه العربى ، طردهم من حضرته ، واصدر أمامهم أوامره الى قواد جيشه بأن يبادروا العرب ببدء القتال ...

وصنع محمد بن مروان ما درج العرب على صنعه فى مثـل هذه الظروف والاحوال : جاء بالمعاهدة المكتوبة ، وعليهـا توقيع الخليفة وتوقيع الامبراطور ، وعلقها فى راس رمح رفعه أقدم حملة الاعلام فى مقدمة الجيش ...
ومشى الى المعركة ...

وارتجت الارض تحت سنابك الخيـل ، وعبق الجو بصيحات المقاتلين المختلطة بالغبار المنتشر فى وهج الشمس ...

وتساقط الفرسان صرعى فى جوانب الميدان !

وكان محمد بن مروان فى الطليعة ، يحث رجاله على القتال . وحوله رهط من خيرة الرماة ، بينهم النساء الثلاث والرجال انسة ، القادمون من بلاد الروم

وتمايلت صفوف العرب ، وامتد الاضطراب فى كتائبهم . فجيش الروم يفوق أضعاف عددهم ، والعدد يغلب الشجاعة فى كثير من المعارك !

تشاور محمد بن مروان مع قواد الجيش فى حومة الوغى . وفكروا فى التذرع بالحيلة ،لمعالجة التفاوت فىالعدد بينهم وبين العدو ...

واخترقت الصفوف هند ابنة الفضل ، واقتربت بجرأة من القائد الحائر ، وقالت بلهجة تنم عن الاقتناع بما تقول :

أيها القائد ... علمت ان الفرسان الصقالبة المرتزقة ، فى جيش الامبراطور ، يقودهم اسطفان الهنغارى . وهـــذا الزعيم الذى يأتمر الصقالبة والهنغاريون بأمره ، ويسيرون خلفه الى حيث يريد ، بلا تردد ولا سؤال ، على خلاف مع جستنيانوس بسبب الأجـــور التى يدفعهـــا الامبراطور لرجاله . وبالمال يمكنك أن تجتذب هذا القائد الى صفك لأنه لا يحارب من أجل وطن ولا من أجل دين ، بل من أجـــل الذهب الذى يتقاضـــاه ويوزعه على رجاله ! فجرب حظك معه ، وابعث اليه بحفنة من الدنانير الذهبية التى رفض قيصر قبولها من الخليفة ، وأعلن عليكم الحرب بسببها .

الفكرة رائعة ! ..

لم يتردد محمد بن مروان فى تطبيقها . فنادى حامل المال فى جيشه ونزع جعبة سهامه من كتفه وسحب منها النبال ، وملأ الجعبة ذهبا وعاجا وأرسلها فى الحال مع رسولين الى اسطفان الهنغارى ، فى خلال المعركة !

وكان الذهب العربى فعله فى نفس القائد الهنغارى ، الذى كان يعتمد عليه الامبراطور الرومى لاحراز النصر !

وما هى غير ســـاعة أو اقل ، حتى تحركت كتائب المرتزقة الصقالبة ، وتخلت عن قيصر وجيشه ، وانضمت الى محمـــد بن مروان ورجاله ...

عشرون ألفا من الفرسان ، أغراهم المـــال فانتقلوا من أجله وبفعله الساحر ، من صف الى صف ، ومن جيش الى جيش !

وفقد الامبراطور صوابه ، وانطلق يشتم ويلعن ، ولـكن الشتائم واللعنات ما كانت فى يوم من الايام من اسلحة القتال الماضية ،واسباب النصر فى الميادين ...

وهرب جستنيانوس الثانى ، واندفع جيشه وراءه طالبا النجاة فى الجبال والوديان ...

ولم يلحق به محمد بن مروان ! فقد أحرز النصر ، وارغم العدو على العودة على أعقابه الى ما وراء الحدود وهذا كل ما كان الخليفة عبـــد الملك بن مروان يريده منه !

وعرفت تلك المعركة في التاريخ بمعركة سوبسطة ، او معركة قيصرية على السواء .

وعاد محمد بن مروان الى دمشق . وروى للخليفة ماحدث ، فأمر عبد الملك بأن يخير الصقالبة الذين تخلوا عن الروم بين أمرين : أما العودة الى بلادهم ، واما البقاء في سورية ...

فاختاروا البقاء جميعهم !

وووزعت عليهم الاراضي مكافأة لهم على مافعلوا ، واستقروا في انطاكية وعلى الساحل السوري وفي جزيرة قبرص وسهول حوران ..

اما جستنيانوس الثاني ، فقد انتقم منهم ، لانهم خانوه ، بأن قبض على نسائهم واطفالهم ، الباقين في بلاد الروم ، وقتلهم جميعا غرقا ، بأن أمرزبانيته بالقائهم في بحر مرمرة ، من فوق الصخور ، بمدينة نيقوميديا ، وهي اليوم « أزميت »

ولم يصب احد في المعركة من التسعة الهاربين من بيزنطة . وقد اقطعهم الخليفة ارضا في غوطة الشام ، فعاشوا في هناء واطمئنان ، في البلد الذي نزحت عنه من قبل أسرهم الثلاث ..

والغت معركة قيصرية معاهدة الصداقة بين العرب والروم . فانقطع الخليفة عن دفع التعويض الاسبوعي الى قيصر !

وراجت الدنانير والدراهم العربية ، وحلت مع الزمن محل الدنانير والدراهم الفارسية والرومية

وحكم عبد الملك بن مروان مدة احدى وعشرين سنة ، اوسع امبراطورية عرفها التاريخ ! ومات في سنة ٨٧ الهجرية ، الموافقة لسنة ٧٠٥ الميلادية ، في الستين من العمر .

فى حمى سيف الدولة

لكل امرىء من دهره ماتعودا
وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا
« المتنبى »

كان لابد ان تنتهي تلك الثورة العاطفية بهرب الفتاة التى أضرمت نارها فى الصدور ، فهربت « دومينا » مع حبيبها « درماس » من مدينة بيزنطة تاركة فيهـــا خطيبها « قسطنطين » يحرق أسنانه من الغيظ ، ويفكر في اللحاق بها ، واعادتها الى كنفـه ، والانتقام من غريمـه الذى خطفها منه !

كان أبوها « دوميسيوس » ضابطا صغيرا بجيش الروم فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وأمها نصرانية من حلب . واحبها قسطنطين ابن القائد المغوار « برداس فوكاس » الذى يعـــده مواطنوه مفخرة من مفاخرهم ، وعمادا يسند الامبراطورية فى حروبها مع جيرانهـــا ، والذى لا يرى بعين الرضا ترعرع عاطفة الحب بين ابنه قسطنطين والفتاة ابنة الضابط الصغير ، لأنه يريد لابنه زوجة من بنـــات الأسر العريقة فى الحسب والنسب . وكانت الفتاة نفسها لا تميـل الى الشاب الذى كلف بها ، ولا تبـــادله حبا بحب ، ولكن أباها دوميسيوس كان يضغط على ارادتها ، ويلح عليها بأن ترضي بابن القائد الكبير زوجا لها ، لأن هـــذه المصاهرة تجلب لأسرة الفتاة الجاه والمـال . ولكن دومينا كانت تصر على الرفض ، لأنها تحب من ناحيتها شابا غير قسطنطين ، وهى لا تستوحى غير قلبها فى تقدير مصيرها ، فالجاه والمال لا يستهويانها ، والسعادة فى عرفها محصورة فى الحب وحده .

اقنعت أم قسطنطين زوجهـــا برداس بان يكف عن معارضته ، ويترك لولدهما حرية اختيار المرأة التى يريدها رفيقة حياته ، كما فعلا هما من قبل ، فنزل الرجل على ارادة زوجته

وفى اليوم الذى حددت فيه الاسرتان ، أسرة القائد الكبير ، واسرة الضابط الصغير ، موعدا لعقد القران بين الشاب والفتاة ، حددت دومينا من جهتها ، وبالاتفاق مع حبيبها درماس ، موعدا للهرب من بيزنطة ، ومحاولة الوصول الى حلب ، موطن أمهـــا التى ماتت ودومينا فى سن الرضاعة

ووافق درماس على هذه الخطة ، رغبة منه فى الاحتفاظ بحبيبته ، ولأن له فى حلب أصدقاء وعملاء من عرب غســـان النصارى مثـــله ، يعيشون هانئين مطمئنين فى حمى الامير سيف الدولة بن حمـــدان ، ويزاولون التجارة فى حرية وأمان ، بين المدينة الزاهرة ، وغيرها من المدن التابعة للروم وللعرب على السواء

وخرج الحبيبان من المدينة ليلا ، وانطلقا على حصانين كان أصدقاء

درماس قد اعدوهما لهذا الغرض ، وابتعدا مسرعين نحو هضاب الاناضول بينما كان المدعوون يتوافدون على قصر برداس فوكاس ، والد العريس حيث فأجاهم الخبر الغريب : العروس هـربت مع حبيبهـــا ! اراد قسطنطين أن يلحق بالهاربين لكن أباه أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة ، وأطلق في أثرهما جماعة من فرسانه ولكنهم فشـلوا في العثور عليهما ، وعادوا بعد بضعة أسابيع ليقولوا ان القرويين في الجبال وفروا للشاب والفتاة وسائل التخفي ، ومكنوهما من الابتعاد عن السبل المطروقة ، وعلموا منهم انهما يقصدان الى سورية ، وينويان الالتجاء الى عاصمة الحمدانيين .

كانت الصدمة قاسية على قسطنطين ، جرحت كبرياءه ، وأدمت قلبه ، فعول على الانتقام من الخطيبة الخائنة ، ومن الغريم المنتصر ...

كانت حلب الشهباء في ذلك الوقت محط الانظار ومقصد الرواد بلغت أقصى حدود الازدهار ، واوج العز والمجد والشهرة ، في عهد اميرها الهمام . أسواقها تعج بالسلع وبالتجارة ، ومجالسها تجمـــع بين رجال العلم والادب والفن ، وجيشها يحرس التخوم والثغور ، وينقل رايات الحمدانيين المظفرة الخفـــاقة من مكان الى مكان . وصاحب الامارة فيها ، سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي ، يحكم بالعدل والقسطاس . يقـــود الكتائب الى النصر في أيام الحرب ، وينصرف الى حماية الحركة الفكرية في أيام السلم ويغدق المال بلا حساب على النابغين الذين سجلوا اعماله نثرا ، أو اشادوا بها شعرا ، وكان قد تولى الحكم في سنة ٣٣٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٩٤٤ للميلاد

الى تلك المدينة ، والى حمى هذا الامير ، لجأ درماس الغساني ورفيقته في الهرب ، دومينا الرومية، فأكرم سيف الدولة وفادتهما ، وشملهما بحمايته ، وسهل لهما الاتصال بأصدقاء الشاب وبأقارب الفتاة من عائلة أمها الحلبية وبين أولئك الأقارب والأصدقاء ، احتفل درماس ودومينا بقرانهما ، فأصبحت الحبيبة حليلة ، وأصبح الحبيب زوجا حـل بجانب الفتاة الهاربة محل الخطيب الذى أحبها وكرهته .

وكان الحمدانيون في خلاف دائم مع الروم، تتخلله المعارك والمهادنات فتارة يغزو العرب أرض الامبراطورية الشاسعة ، وتارة يغزو الروم أرض الامارة الصغيرة ، والنصر يضحك يوما لهؤلاء ويوما لأولئك ...

وما مرت شـهور معدودة على التجاء درماس ودومينا الى حمى الأمير الكريم ، حتى انطلقت الحرب مرة أخرى من عقالها ، وزحف جيش رومي لجب لغزو بلاد الحمدانيين ، وهدفه الاخير الاستيلاء على حلب .

كان ذلك في سنة ٣٤٢ هجرية ، الموافقة لسنة ٩٥٣ للميلاد : وكان على رأس الجيش الزاحف ، القائد برداس فوكاس ، الذى وضع فيه الامبراطور ثقته وأمله !

وقال قسطنطين لابيه : « دعني اذهب في رفقتك الى ميادين القتال واذا دخلنا مدينة حلب ، فدعني أبحث عن غريمي ، وعن المرأة التي خانتني وانتقم منهما كما يروق لي أن انتقم ! »

واجاب برداس : «تعال معي ! واذا أستولينا على المدينة ، فسوف أطلق يدك لتفعل بها وبسكانها ما تشاء ! »

وما بلغت مسامع الحلبيين أخبار الزحف الجديد ، وما أعدت له بيزنطة من قوة وعتاد ، حتى هرعوا ذرافات ووحدانا الى قصر أميرهم يطلب القادر منهم على حمل السلاح مكانا له في كتائب الجيش ، ويطلب العاجز منهم عن القتال نصيبا كبيرا أوصغيرا في أعمال الدفاع داخل المدينة

وأعد سيف الدولة عدته لمواجهة حالتي الكر والفر . وتوكل على الله وخرج للقاء العدو . وكان درماس بين رجال حرسه ،بعد أن حقق الامير رغبته ، فتحول التاجر الفساني الى فارس حمداني !

أما زوجته الرومية ، التي يجري في عروقها الدم العربي ، فقد بقيت في حلب ، حيث التحقت بفريق النساء اللواتي انصرفن الى اعداد الوسائل اللازمة للعناية بالجرحي ، ومواساة المرضى ...

عند بلدة « ملاطية » على مسافة قصيرة من مجرى الفرات . وفي بقعة طالما ارتوت أرضها من قبل بدماء الابطال ، من فرس ويونان ورومان ،كان الصدام بين الفريقين . الروم بقيادة برداس فوكاس ، والعرب بقيادة سيف الدولة بن حمدان !

معركة رهيبة بين المعارك الرهيبة . صلابة في الهجوم وبطولة في الدفاع . دماء أخرى تسيل بغزارة فترتشفها الارض كما ارتشفت غيرها من قبل . ونصر جديد يعقد لواؤه لابن حمدان . وصفحة نيرة من صحائف الدولة الحمدانية النيرة ، يسطرها سيفها بنصله البتار ! والخسائر فادحة من الطرفين ! وكان بين القتلى الذين استشهدوا في الميدان ، درماس الفساني . وبين الاسرى الذين تخلفوا عن اللحاق برفاقهم بعد الهزيمة ، قسطنطين الرومي !

الزوج المحبوب ، والخطيب المكروه !

ففي غمرة القتال ، وجد كل من الاثنين نفسه فجاة وجها لوجه مع غريمه ، وعرف كل منها الآخر . وأراد درماس أن يأسر قسطنطين ، فبادره الشاب الرومي بضربة من سيفه مزقت عنقه ، ولكنه تشبث به قبل أن تخور قواه ، ويلفظ أنفاسه الاخيرة ، فأسرع رفاقه وأمسكوا بقاتله حيا .

وخرج سكان حلب من خلف أسوارها ، للقاء جيشهم العائد من الميدان منتصرا ، يسوق الاسرى ، ويحمل الاسلحة والارزاق التي غنمها

وانشد ابو الطيب المتنبي ، شاعر الامير ونجيه ، وردد الرواة من بعده :

لكل امرىء من دهره ما تعودا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وانشد معه ابو فراس ، وردد الرواة أيضا من بعده :

وآب بقسطنطين وهو مكبل
تحف به بطارق وزرازر

ولكن فرحة حلب بنشوة النصر ، كانت مصحوبة بالعبرات : نساء بكين أزواجهن ، وأخوات بكين اخوتهن ، وامهات بكين فلذات اكبادهن !! وكانت دومينا بين الباكيات !

ان خطيبها الذى زجرته ، قتل زوجها الذى اختارته . فهل تشمت بالقاتل الذى وقع في الاسر ؟ وهل تسعى الى الثأر منه للدم المسفوك ؟

أرسل سيف الدولة في طلبها ، وغمرها بعطفه ، وقال لها انها منذ ذلك اليوم نزيلة القصر ، تعيش فيه كواحدة من نساء الاسرة الحاكمة وبناتها ، وان ماعليها الا أن تفضي اليه برغباتها ، ايا كانت هذه الرغبات ليحققها لها بدون ابطاء . وانتقلت الزوجة التى ترملت الى قصر الامير .

أما الأسير ، فقد ساءت حالته منذ أن أدرك ما حل به ، ساعة جيء به الى المكان الذى اعتقل فيه رفاقه في الاسر ، فقد تولاه الحزن ، وانتابه الذهول . .

علم سيف الدولة أن الفتى يهذى بكلام غير مفهوم ، يتخلله اسم دومينا ، وانه فى معظم الاحيان يمتنع عن تناول الطعام ، ويقضى الجزء الأكبر من لياليه ساهرا منتحبا . فأرسل فى طلبه واشفق عليه لما رآه على تلك الحالة من الكمد واليأس ، ووعده بأن يطلق سراحه ، ويفك أسره ، ويعيده الى أهله وقومه ، وسأله اذا كان يريد شيئا آخر لكي يجيبه الى ما يريد .

وأصغى الشاب الى كلام الامير صامتا ، شاخص البصر ، ثم تمتم قائلا : « دومينا ! »

فأمر سيف الدولة بأن تخصص للاسير حجرة فى قصره ، وان يحاط بعناية خاصة ، واطلع دومينا ، الزوجة الحزينة ، على ما وصلت اليه حالة الاسير من تدهور جسماني وعقلي ، وطلب منها ان تزوره رحمة به ، فان الله سيحسب لها هذا الاشفاق على التعس المسكين فى محنته ، فتكسب ثوابا . ولا ريب أن روح زوجها الشهيد ستكون مرتاحة الى صنيعها فى جنة الخلود !

وزارت المرأة خطيبها السابق فى سجنه ! وقد كظمت حزنها ، ونادته باسمه . لكنه لم يجب ، بل نظر اليها بعينين منطفئتين ، تنمان على ذاكرة مفقودة ، ومشاعر هامدة ، وذهن ضائع !

وادركت الزوجة ان دم زوجها لم يذهب هدرا ، وان الثأر قد تم لها وله ، وان الرجل الذى قتل درماس بسببها ، يعاني ما هو أشد ألما من الموت ، وان روحه تفارق جسمه على مراحل !

عاش قسطنطين على هذه الحالة بضعة شهور ، ثم وجدوه ذات يوم ميتا على فراشه ، وعيناه جاحظتان .

واراد سيف الدولة أن يدفن ابن القائد الرومى الكبير حسب

طقوس دينه . فسلم جثته الى المسيحيين فى حلب ، فدفنوه فى فناء الكنيسة . ثم كتب الامير الكريم الى برداس فوكاس ، ينبئه بوفاة ابنه ، ويعزيه فى مصابه !

وفى الوقت نفسه ، كتبت دومينا الى أبيها الضابط فى جيش الروم ، تدعوه الى موافاتها فى حلب . فلبى الرجل الدعوة ، واكرم سيف الدولة وفادته كما أكرم من قبل وفادة ابنته وحبيبها . فطلب دوميسيوس أن يلحقه الامير الحمدانى بخدمته ، فأجيب الى طلبه . واستقر مع ابنته فى حلب .

لكن الاقدار أبت الا أن تظل دومينا وحيدة في العالم ، بلا أب ولا زوج فقد سقط دوميسيوس قتيلا في احدى المعارك بجبال طوروس ، سنة ٩٦٠ ميلادية الموافقة لسنة ٣٤٩ هجرية .

فاستأذنت ابنته من الامير الحمدانى الذى عاشت مع زوجها ثم مع أبيها فى حماه ، بأن تعتزل الحياة وتقضى بقية أيامها فى الدير .

وفى جبال لبنان ، بين صوامع الرهبان والراهبات ، كرست دومينا الرومية العربية نفسها للصلاة والعبادة والدعاء لمن احبتهم على هذه الارض .

فهل كانت على قيد الحياة ، يوم انتقل الامير سيف الدولة ابو الحسن على بن عبد الله الحمداني التغلبى الى جوار ربه ، فى سنة ٣٥٦ هجرية ، الموافقة لسنة ٩٦٦ للميلاد بعد ان تولى الامارة ثلاثا وعشرين سنة ؟

وهل بلغها خبر وفاته ، فصلت من أجله فى ديرها كما صلت فيه من أجل أبيها وزوجها ؟

أم ماتت قبله ، وهى تذكره بالخير ، لفرط ما صنعه معها من خير ؟

أحـلام "جلنار"

احلام عجيبة رأتهـا فتاة ، وتحققت للملك محمود الغزنوى ، الذى يعود اليه الفضـل فى انتشار الاسلام فى الهند

أمام كوخ مصنوع من أغصان الشجر ، على ضفة غدير تحنو عليه صفصافة ارخت غصونها لتغتسل فى مائه ، ترجل الفارس وفعل رفاقه مثله ، وتركوا خيولهم تمرح حرة فى ذلك المكان الهادىء ، بين الحشائش والاعشاب ، وهرعت اليهم فتاة خلفها قطيع صغير من الغنم والماعز ، فرحبت بهم ، ودعتهم الى ارواء ظمئهم من ماء الغدير ، وقدمت لهم اللبن والعسل فى قصاع من الخشب .

يبدو عليها أنها لم تجاوز بعد نهاية العقد الثاني من العمر . ولما سألها الفارس عن أهلها ، قالت أنها يتيمة ، تعيش فى ذلك الكوخ مع أخيها ، وهو يكبرها سنا ، والاثنان يرتزقان من بيع الاصواف والالبان والاخشاب .

وأجابت عن سؤال آخر بأن اسمها « جلنار » واسم أخيها « موسى » وانه يقال له « الحلبى » لانه سافر الى حلب مع ابيه ، ثم عاد منها وحده ، بعد أن قتل أبوه خطأ فى احدى الغزوات .

وسألت الفتاة بدورها :

ـ وانت ، ما اسمك ؟

وأجاب الفارس :

ـ محمود ..

فسكتت جلنار لحظة ، ثم استطردت تقول :

وهو أيضا .. كان اسمه محمود .. مثلك أنت .. ومثلك انت كان يصطاد فى الغابة قبل أن يترجل امام هذا الكوخ ..

فعاد الفارس يسأل :

ـ هو ؟ .. من هو ؟ ..

ـ الشاب الذى رأيته فى منامى أمس .. الشاب الذى قرأت صفحة من حياته فى الحلم .. الشاب الذى شرب مثلك من هذا الغدير ، وذاق لبن الماعز وعسل النحل فى هذا المكان الذى انت واقف فيه ... الشاب الذى هو أنت ..

ـ ان حديثك يشبه حديث المنجمات والعرافات والساحرات !..

قال الفارس هذا وضحك ضحكة عالية صاحبها رفاقه بضحكات

عالية مثلها . فقطبت الفتاة جبينها ، واختفت الابتسامة عن شفتيها ، وعلت وجهها امارات الكآبة الممزوجة بالغضب ، وقالت بصوت حاولت ان تجعله خشنا :

ـ اسمع يا سيدي .. كانت امي تقرا في الكف وتستطلع الغيب بالضرب في الرمل والقاء الحصى في المياه الراكدة .. اما انا ، فانني اقرأ في الحلم ، وانا غارقة في النوم ، ما سوف يحدث في الغد للاشخاص الذين اراهم في المنام .. لا تضحك .. ولا تهزأ بي .. واستمع الى ما اقوله لك ، ثم انصرف وفقك الله ، واذكرني بالخير اذا ما تحقق شيء من اقوالي ..

وعلى مسمع من الفارس محمود ورفاقه في الصيد ، قالت جلنار :

ـ رايتك انت .. انت لا سواك .. تجلس على عرش وترفع فوق راسك قبة من ذهب .. ورايتك على متن جوادك تقود جيشا الى القتال بعد ان رايتك تقود كوكبة من الفرسان في رحلة للصيد والقنص .. مثل هذه الرحلة .. ورايتك تجتاز البراري والقفار ، والجبال والاودية ، وتقتحم القلاع والحصون ، وتفتح البلدان والامصار ،وتنشر بين اهلها دين التوحيد ، فتدخل في كنف الاسلام على يدك اقوام وجماعات يتضاعف عددها على كر الايام .. رايتك تعود من كل غزوة والقوافل خلفك تحمل اسلاب المعارك ، فتغدق المال والعطايا على من يشملهم عطفك وحبك .. رايتك تحقق من الاعمال العظيمة ما عجزت عنه همم الذين سبقوك في حكم هذه الديار .. رايتك تواجه الموت فيهرب الموت منك .. ثم رأيتك تعرض صدرك للنبال فتنقذك من الموت امراة تكون في تلك اللحظة الرهيبة واقفة بجانبك .. ورأيت المرأة تموت بين ذراعيك .

سكتت جلنار . وعاد محمود يسأل :

ـ وانا ؟ .. اما لقيت حتفي يوم داهمتني النبال التي قتلت المراة ؟

فاجابت الفتاة :

ـ لا . .لم تقتل انت في ذلك اليوم .. ولكنني رايتك بعد تلك الحادثة تموت حتف انفك في السرير الذي تنام فيه !

ـ كل هذا في الحلم ؟

ـ نعم .. فانني ارى الغيب ولا اقرؤه كما كانت تفعل امي .. ارى في المنام ما سيحدث لغيري من الناس في اليقظة .. ولكنني لا ارى شيئا مما سيحدث لي انا ..

ـ اذن ، يجب أن تتركي هذا الكوخ يا جلنار ، انت واخوك ... وان تقيمي معي في كنفي وضيافتي ،ريثما تتحقق هذه النبوءات الكثيرة التي افضيت بها الي ، والتي ارجو الا تكون اوهاما واضغاث احلام !

فاجابت الفتاة :

ـ كثيرا ما تكون الحقائق احلاما ، والاحلام حقائق !

وعاد الفارس الصياد الى المدينة ، ومعه رفاقه فى تلك الرحلة ، وقد انضم اليهم موسى الملقب بالحلبى ، واخته جلنار راعية الغنم !

مات الامير التركمانى سبكتكين ، وخلفه ابنه اسماعيل الذى قتل قبل ان ينعم بالحكم ، فخلفه فى منصبه اخوه محمود ..

ومحمود هو الفارس الذى تنبأت له العرافة الحالمة بانه سيكون بطلا من ابطال الحروب والفتوحات ..

جعل مدينة « غزنة » مقرا لحكمه . وقرر ان يجمع شمل القبائل التركمانية فى دولة واحدة ، يكون هو رأسها ، ويحتفظ بالولاء لخليفة أمير المؤمنين الجالس على عرش العباسيين ببغداد ، وهو ولاء لا يضر ولا يكلف شيئا .. ؟

***

كان ذلك سنة ٣٨٧ للهجرة ــ الموافقة لسنة ٩٩٧ للميلاد ــ فى عهد خلافة القادر بالله ابى العباس ، الضعيف الخامل ..

وما انقضت سنة واحدة على انشاء العرش الذى تبوأه محمود بن سبكتكين فى مدينة غزنة ، حتى كان جميع الامراء والحكام فى تركستان قد دانوا له بالطاعة ،واعترفوا بسيادته ،ولقبوه بأمين الدولة ، ووضعوا جيوشهم تحت لوائه ، ومشوا معه لغزو خراسان وغيرها من الاقاليم المجاورة . وقلق مهارجة الهند وحكام الامارات الواقعة على الحدود من قيام تلك الدولة الجديدة ، دولة الغزنويين ، على مقربة منهم ، وراحوا يتشاورون فيما بينهم لوضع خطة مشتركة يدفعون بها عن انفسهم واماراتهم ذلك الخطر المتفاقم فى الشمال . وفطن محمود الغزنوى الى ذلك واراد ان يحطم المؤامرة فى مهدها ، فقرر أن يزحف على الهند قبل ان يجمع امراؤها جموعهم ويزحفوا على دولته الفتية ..

وسدد ضربته الأولى الى امارة « لاهور » فحاول ملكها الراجا أن يقاوم الزحف المفاجىء ، ولكنه غلب على امره ، وطلب الامان ورضى بدفع الجزية والاعتراف بسيادة الغزنوى عليه !

وبعد اجتياح دولة لاهور الهندية ، قال محمود للفتاة العربية :

ــ قضينا يا جلنار على اعدائنا فى الداخل ، فلا احد يزاحمنا على الملك الآن فى بلاد تركستان كلها ، ولا فى خراسان والاقاليم الفارسية . فقد اخذناها كلها بالحسنى أو اخضعناها بالقوة .. وبقى علينا ان نفتح الهند وندك عروشها ونبسط سلطاننا على شعوبها ، فنوسع بذلك ملكنا ، ونوسع معه دولة الاسلام ، فنخدم ديننا ودنيانا فى آن معا ! ..

واخذ محمودالغزنوى يد جلنار بين يديه ،وطبع قبلة على جبينها، وقال بصوت مفعم بالحنان والاخلاص :

ــ الا تزالين على رفضك ؟ .. لا حليلة ، ولا خليلة ؟

وأطرقت الفتاة لحظة ، ثم رفعت عينيها والدموع تترقرق فيهما ، وقالت بصوت مثل صوت الشاب ، مفعم بالحنان والاخلاص :

ـ احبك يا مولاى ! . . ولـكننى لا ازال على رفضى : لا حليلة ، ولا خليلة . واننى أذكر ما قالتـه لى أمى : « اعلمى يا ابنتى أن القــوة الخفية التى تجعلك ترين فى المنام ما سوف يصبح فى المستقبل حقيقة واقعة ، ستظل كامنة فيك ما دمت فتاة عذراء لا تعرف رجلا ولا يعرفهـا رجل ! . . أما اذا حدث شيء من هذا ، فمعرفة الغيب ستـفارقك الى غير رجعة ! . . » ومن أجـل هذا يا مولاى ، من أجل الابقـاء على تلك القوة الخفية ، والاحتفاظ بتلك المزية العجيبة ، اكرر الآن ما قلته لك اكثر من مرة : لا حليلة ، ولا خليلة !

وانطلق محمود الغزنوى الى فتوحات اخـرى ، وفى رفقته قائد الحرس موسى الحلبى ، واخته العرافة جلنار . .

***

كان الاسلام قد دخل للمرة الاولى الى الهند على يد القائد محمد ابن القاسم ، فى سنة ٩٤ الهجرية ، الموافقة لسنة ٧١٢ للميلاد . ولكن الدين الجديد لم ينتشر بين الهنـود ولم ينطلق قواد آخرون فى الطريق الذى انطلق فيه ابن القــاسم ، لمواصلة مهمته وأداء رسالته . فتوقفت الدعوة بتوقف الفتح ، بعد موت محمد بن القاسم .

وكتب للسـلطان محمود الغزنوى ، صاحب غزنة وبلاد التركمان والتركستان وخراسان واقاليم فارس بجملتها ، ان يكون ذلك الفاتح المختار .

أربع عشرة مرة زحف محمود الغزنوى على الهند ، وخلفه جيش لجب يدك به الاسوار ، ويقتحم المدن ، ويجتاح الامصار .

بعد خضوع ملك لاهور ، خضـــع للفاتح الملك راجا باولبور . وتبعه راجا ملتان ، ثم راجا جواليور ، فراجا كانوج ، فراجا دلهى . . .

نزع أولئك الملوك التيجـان عن رءوسهم ووضعوها تحت قدمى الفاتح الذى جاء من الشـمال ، وسلموه كنوزهم وأموالهم وقصورهم وعبيـدهم ، فأخذ منها ما أخذ ، وترك لهم ما ترك ، وتمشت القوافل محملة بالأسلاب الى غزنة وغيرها من مدن الدولة الغزنوية !

وكان السلطان محمود الفاتح لا يقف عن الزحف الى الامام الا ما يكفى من الوقت لاعطـاء الجنود نصيبهم من الراحة ، والاشراف على شئون الدولة ومصالح الرعية . .

واصل الرجل زحفه فبلغ جبال هملايا من ناحية ، ومجرى نهـر الكنج من ناحية اخـرى ، فدانت له دول بعد دول ، وشـعوب بعد شعوب : كشـمير ، وراجبوتانا ، وجوجره ، والبنجاب . وانهار أمامه عرش سوهستان وفر صاحبه السـلطان خلف . وأخذ غردستان من آل الفورى . وامتد ملكه فشمل بلاد الفرس كلها ، والشطر الشـمالى الغربى من بلاد الهند المترامية الاطراف . .

وكان العلماء والشـعراء والادباء والمنشـدون والموسيقيون فى

العاصمة « غزنة » يتغنون بمفاخر الفاتح الذى لا يعرف الكلل ، وكان اشدهم حماسة « البيرونى » الذى خلد اسمه واسم السلطان الذى اغدق عليم النعم ، ومثله ايضا كان « الفردوسى » الذى نظم ملحمته الرائعة التى سماها « شاهنامه » اى « كتاب الملوك » مستمدا انوحى والالهام من حياةمحمود الغزنوى الفاتح المحظوظ الذى لم يقهر ،والذى انتشر الاسلام فى الهند على يده !

ظل السلطان التركمانى يحارب وينتصر ، ثلاثين سنة متوالية بلا انقطاع ، ولم تتخلف جلنار ، صاحبة الاحلام ، مرة واحدة عن مرافقته فى حروبه ، ومشاركته فى انتصاراته .

وفى خلال السنوات الثلاثين ، كان الخليفة العباسى ، ورجال دولته ، واقطاب المسلمين فى الشرق كله ، يتوجهون بدعواتهم الى ذلك الفارس الذى لا يشق له غبار ، والفاتح الذى لا تصمد فى وجهه قلاع ، والمحارب الذى لم يعرف الهزيمة ، وكانوا يجنون معه ثمار تلك الانتصارات الرائعة ، فيلحقهم من فخرها رشاش ، ومن اسلابها نصيب !

وظلت جلنار على رفضها : لا حليلة ، ولا خليلة !

***

فى سنة ٤٢٠ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٢٩ للميلاد ، كان السلطان محمود الغزنوى فى حرب مع مجد الدولة بن بويه الغزى ، المعتصم فى قلعته المنيعة بالعراق العجمى . وكان فريق من الحساد والموتورين قد انضموا الى هذا الامير الحقود لمحاربة الغزنوى ، طامعين فى اقتطاع جزء او اجزاء من ملكه الواسع .

وقرر السلطان ان يضرب عدوه ، كعادته ، ضربة واحدة ولكنها قاضية .

ورافقته جلنار فى تلك الغزوة كما رافقته من قبل فى غيرها ..

وفى الطريق الى القلعة ، وقع محمود الغزنوى وحرسه فى كمين نصبه انصار مجد الدولة فى أحد الاودية . وانهالت السهام من خلف الصخور كالمطر المدرار ووقفت جلنار بجانب معبودها ترقب القتال وتشترك فيه .

وتسلل احد الرماة من الاعداء انى مقربة من المكان الذى كان السلطان واقفا فيه ، وقد ترجل عن جواده واحتمى به ، وصوب الرجل سهما لم يشك لحظة فى انه سيكون صائبا وانه سيستقر فى الصدر الذى استهدفه ..

ولكن السهم الصائب لم يستقر فى صدر الغزنوى ، بل اخترق صدر الفتاة التى كانت حائلا بينه وبين الرامى ! ..

وتمايلت جلنار وسقطت بين ذراعى رفيقها ، والدم يسيل بغزارة من الجرح القاتل ..

وتمتمت قائلة :

ــ أما تنبأت لك ، حسب المنـــــام ، بأن امرأة ستنقذ حياتك من الموت ؟ . . .

ثم تمتمت ايضا :

ــ ولكننى ما رأيت فى الحلم اننى انا هى تلك المرأة التى تنقــذ حياتك !

وللمرة الاولى ، بين تراشق السهام والنبال ، وصيحات المتحاربين ، وقعقعة السلاح ، التقت شفاه الحبيبين فى قبلة حارة . .

قبلة فاضـــت معها روح جلنــار التى تاقت الى الحب وهى فى العشرين ، ولـكنها حرمت نفسها منه مدة ثلاثين سنة ، وذاقت قبلته الاولى وهى على عتبة العقد السادس من العمر !

***

تحققت احلامها جميعا ! . .

اصـــبح حبيبها امين الدولة محمود الغزنوى ملكا ، وفتح الاقطار والامصار ، ونشر الدين الاسلامى فى الهند ، واحرز من الاموال والكنوز ما لم يحرز مثله غير القليلين من الملوك ، واغدق النعم والعطـــايا على رعاياه بلا حساب ، وكان فى حياته محبا مخلصا لمن احبه واخلص له . .

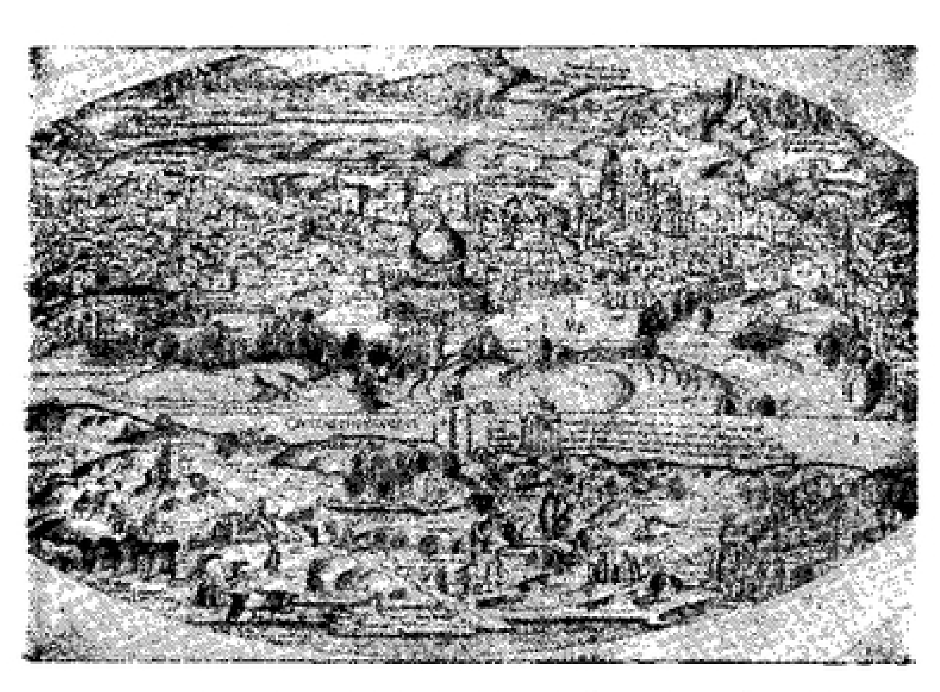
ومات حتف انفه فى سريره ، حســبما رات جلنار فى الحلم ، بعد موت صديقته وحبيبته بسنة واحدة !

فقد ختمت حياة امين الدولة السلطان محمود الغزنوى فى ســنة ٤٢١ للهجرة الموافقة لســنة ١٠٣٠ للميلاد ، بمدينة غزنة عاصــمته الزاهرة ، فى العقد السادس من العمر ، تاركا ملكا اسلاميا تمتد حدوده من شواطىء بحر قزوين الى ضفاف نهر الكنج !

واليه يعود الفضل فى دخول الاسلام وانتشاره وتثبيت دعائمه فى بلاد الهند !

غـــــزالـة

مقابلة المعروف بالمعروف
واجبـــة حتى بين الاعداء ؟



رسم قديم لبيت المقدس يرجع الى القرن الرابع عشر ·
وتبدو فى الوسط قبة الصخرة

عندما جلس على عرش مصر الخليفة العلوى الطفل « ابو على المنصور »الملقب بالآمر بأحكام الله ، تولى تدبير شئون الدولة وزيره « الأفضل » فكان أول عمل أقدم عليه تجريد حملة عسكرية لاسترجاع ما انتزعه الصليبيون من أرض فلسطين المقدسة .. وفى أوائل سنة ١١٠٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩٦ للهجرة ، كان عشرون ألف فارس وراجل قد احتشدوا فى مدينة « عسقلان » الحصينة ، حيث التحق بهم السكان وحرضوهم على الزحف نحو بيت المقدس ..

وكان على رأس الجيش المصرى فى تلك الحملة القائد الشاب « شرف المعالى » ابن الوزير (الأفضل) فقرر أن يفاجيء الصليبيين قبل أن يعدوا عدتهم للقائه ، وخرج برجاله وعتاده من أسوار «عسقلان» قاصدا الى « الرملة واللد » ، ليهدد فى آن واحد مدينة القدس عاصمة الدولة المسيحية ، ومدينة يافا ميناءها ..

وعلم ملك الافرنج « بودوان الاول » بخبر هذا الزحف غير المنتظر ، فقرر الخروج فى الحال لمنازلة الجيش الزاحف قبل أن يصل الى طريق القدس وعبثا حاول رجال حاشيته ان يثنوه عن عزمه ، ويحملوه على التريث ويقنعوه بوجوب ارسال الكشافة الى الساحل لمعرفة عدد المهاجمين ، واستنفار الحاميات الصليبية فى أسامرة والجليل ويافا . فقد أصم الملك اذنيه عن سماع النصائح، واندفع نحو « الرملة » على رأس قوة مؤلفة من مائتى فارس فقط ..

وكان لا بد أن يلاقى ذلك العمل الطائش الجنونى عاقبته الوخيمة فقد ادرك الملك خطأه عندما أشرف على سهل الرملة ، فاذا به أمام الجيش المصرى اللجب يملأ ذلك السهل ويسد منافذه ، فلا تأخذ العين آخره !

شعر « بودوان » بأنه قاد قوته الى هلاك أكيد ، فاراد أن يعود على أعقابه ولكن بعد فوات الوقت . فقد انتشر الفرسان العرب والسودانيون من جناحى الجيش المصرى ، واحاطوا بالصليبيين من كل ناحية ، وعولوا على الفتك بهم خوفا من أن يكونوا طليعة لجيش كبير قادم ، فأرغموهم على خوض غمار معركة عرفت نتائجها قبل أن تنطلق السيوف من أغمدتها ..

كان ذلك فى السابع عشر من شهر مايو سنة ١١٠٢ . وقد أبدى الملك الصليبى ورجاله من ضروب الشجاعة والفروسية ما أثار اعجاب القواد المصريين ، ولكن الدائرة دارت عليهم ، فتساقط الفرسان واحدا

بعد واحد فى ذلك الخصم البشرى الشاسع ، وظل الملك يستحثهم على القتـــال ويستدرجهم شيئا فشـــيئا للافلات من غمرته ، والابتعاد عن الســـهل الرهيب ، والالتجاء الى بلدة الرملة الحصينة للاحتمـــاء بأسوارها .

وقد حال الظلام وحده دون القضاء على البقية الباقية من شراذم الصليبيين ، ولما نادى الملك رجاله لتدبير أمر الدفاع عن البلدة ، هاله ما رأى ! فقد هلكت في المعركة زهرة الفرسان ولم ينج من الموت غـــير بضع عشرات منهم . فأيقن بودوان أن المصريين ســيهاجمون الرملة فى صباح اليوم التالى ، وانه ورجاله مقضى عليهم ولا أمل فى الخلاص من الموت أو الأسر الا بمعجزة !

وفى الليل حدثت المعجزة !

فقد وصـــل قبيل الفجر ، الى البرج الذى اتخذه الملك مقرا له وعول على لقاء الموت فيه ، رجل بدوى طلب المثول فى الحـــال بين يدى « بودوان » وما أن دخل عليــه حتى أسرع فتناول طرف ردائه ورفعه الى شفتيه ، ثم طبع قبلة على يد الملك وقال :

ــ انك لا تعرفنى أيها الملك . ولكنى أعرفك . ولم تسمع باسمى ولكنى ســمعت باسمك . وقد سبق أن غمرتنى بفضلك فطوقت عنقى بجميل أحفظه لك مدى العمر .. انا زوج « غزالة » البدوية !

فانتفض الملك وارتسمت على فمه ابتســامة فيها سرور وفيهـــا دهشـــة ، وفيها بارقة أمل .. ونسى لحظة ما كان يكتنفه من هموم ، وسأل البدوى :

ــ غزالة ؟ .. كيف حالها ؟ وأين هى ؟

ــ انها بخير أيها الملك تدعو لك بالســعادة وطول العمر .. ولكن دعنا منها الآن، فالوقت ضيق والساعات معدودة ، فلابد من انقاذ حياتك اليوم كما انقذت زوجتى .. ان الجيش المصرى ســيهاجم أسوار الرملة عند طلــوع الشمس .. فالهرب خير لك من البقاء ، اذ لا فائدة لك من المقاومة ، ولا أمل لك فى النجاة غدا . واننى أعرف منفذا سريا يمكنك ان تتســلل منه الى الخارج مع بعض رفاقك او معهم جميعا اذا شئت . وما جئت الليلة الا لكى أســير امامك فى ذلك المنفذ . فاتبعنى ولا تضيع لحظة واحدة !

تشاور الملك مع فرسانه . فقرروا جميعا ان الهرب من الحصن ليلا خير من البقاء كما قال البدوى ، وان حيــاة صاحب العرش ليست ملكا له بل هى ملك لشعبه ودولته ، فالابقاء عليها وانقاذها من الهـــلاك واجب يفوق واجب الدفاع عن موقع حربى لا أمل فى الاحتفاظ به ..

فالتفت الملك الى البدوى وقال :

ــ سر امامى .. اننى أتبعك !

***

من هو ذلك البدوى ، ومن هى زوجته « غزالة » ، وماشأن ملك الصليبيين بهما ؟

لا بد لنا من الرجوع عاما الى الوراء ..

ففى سنة ١١٠١ ، الموافقة لسنة ٤٩٥ للهجرة ، كانت الحرب بين المسلمين والصليبيين قدخفت حدتها ، فتطورت الى سلسلة من الغزوات والمناوشات بل الى نوع من أعمال السلب والنهب ، فكان كل فريق يغزو الآخر على الطريقة المتبعة بين قبائل البادية ، يعود الى مواقعه بالاسلاب والغنائم والأسرى .. وحدث مرة أن علم الملك « بودوان » بأن جماعات من العرب تضرب مضاربها على ضفة نهر الأردن الشرقية ، تجاه حدود مملكته ، وانها تطلق هناك فى المراعى الخضراء عددا كبيرا من الخيول والجمال والحمير والخرفان ، ففاجاها بقوة من الفرسان قادها بنفسه ، وتفرق العربان فى الصحراء بعد أن قتل منهم من قتل ، وجرح من جرح ، وساق الصليبيون امامهم القطعان والأسرى . واجتازوا النهر عائدين من حيث أتوا ..

وبينما هم فى طريقهم وسط الجبال ، قيل للملك ان امرأة بدوية على وشك أن تلد ! وهى تقول انها زوجة شيخ من شيوخ العرب ، عهد الى بعض اقاربه بمرافقتها الى « بيسان » ، فكان نصيبها الوقوع فى الأسر .

امرأة حامل تلد فى الطريق ! ان هذا لحادث يثير فى آن واحد الضحك والشفقة ! وقد ضحك الملك ولكنه اشفق على تلك المسكينة التى كان رجاله يسوقون الناقة التى تحملها مع بقية الابل . فقصد اليها فى الحال ، ومعه بعض الرفاق المقربين ، وأمر بأن يتوقف الجميع عن مواصلة السير ، وان تنصب خيمة للمرأة البدوية ، وتعنى بها النساء الأخريات، ويسهرن على راحتها ..

وشهد ذلك المكان ، فى الطريق بين الأردن والقدس ، منظرا لم يقع عليه بصر من قبل : فقد ربضت تلك الجموع من الصليبيين والعربان مع خيولها وقطعانها بين الصخور ،ريثما تضع المرأة البدوية الحامل وليدها! ونزع الملك رداءه الاخضر ، وأمر بأن يجعلوه غطاء لها ، وأن يبحثوا عن ناقتين يخصص لبنهما لتغذية الأم وارضاع الطفل ، وأن توضع فى الخيمة قربتان من الماء الصافى ،وتبقى مع المرأة اثنتان من صويحباتها البدويات، حتى اذا ما تم خلاصها مما هى فيه ، واستعادت قوتها ، أعيدت الى زوجها حيثما يكون !

وودع الملك الصليبى المرأة البدوية . وسألها عن اسمها فقالت :

ــ اسمى غزالة !

ودهش الملك لغرابة المصادفة : فان الفرس العربية الأصيلة التى يخوض بها عجاج المعارك تدعى ايضا « غزالة » وقدغنمها من أمير عربى فى احدى غزواته السابقة .. فابتسم وقال للمرأة :

ــ استودعك الله يا غزالة ، وسوف أفكر فيك كلما وقع نظرى على الغزالة العربية الاخرى ، التى تثير اعجابى بذكائها ووفائها !

فأجابت البدوية :

ـ ان الذكاء والوفاء ايها الملك من صـفات اهل البادية ، انسانها وحيوانها على الســواء ، فلا غرابة فى أن تكون فرسـك الأصيلة ذكية وفية . وثق اننا نحفظ حسن الصنيع ولن يضيع الجميل معنا !

تلك قصة المرأة البدوية التى جاء زوجها ، بعـد سنة من ذلك الحادث ، برد الجميل لملك الصليبيين ، فينقذ حياته فى الرملة ، كما انقذ الملك حيـاة زوجته فى وعر الأردن . فقـد كان زوج « غزالة » يحارب فى صفوف الجيش المصرى عندما فتك بالقوة الصليبية وارغم فلولها على الاحتماء بأسوار البلدة الضيقة ، ورأى الشيخ أن الفرصة سانحة لمقابلة الصنيع الحسن بمثله ، ففعل ما فعـل فى تلك الليـلة الرهيبة ، وتسلل الى داخل الحصن ، وعرض على الملك أن يدله الى سبيل الخلاص

وعمل بودوان الاول بنصيحة منقذه ، واشارة فرسانه ، فخرج من الرملة ومعه أربعة من رجاله فقط ، وساروا خلف الدليل البدوى ، وشقوا طريقهم بين مواقع الجيش المصرى ، ثم انطلق الملك على متن فرسه « غزالة » ، فى الجبال والوديان . .

ولحق به المصريون ولكنه افلت منهم ، وأوشكوا أن يقطعوا عليه الطريق مرة أخرى فى « دير عمار » و « الكفر » ولكن سرعة « غزالة » حالت دون وقوعه فى الأسر . .

وفى اليوم التالى ، هاجم الجيش المصرى أسوار الرملة فاقتحمها بعد صراع دام يوما وبعض يوم . وفى ١٩ مايو ١١٠٢ ، سقطت البلدة فى قبضة المهاجمين ، ووقع فى الأسر من تبقى من رجال « بودوان » ...

اما الملك ، فقد نجا بفضل الغزالتين : المرأة البدوية الوفية التى اوفدت اليه زوجها ، والفرس العربية الأصيلة التى حملته بعيدا عن مواطن الخطر !

الفديــــة

مباراة في كرم الأخلاق
بين أميرين عدوين ! . .



ـ سأبقى أسيراً لديك حتى يدفع صديقي بقية فديته !

في ربيع سنة ١١٠٤ للميلاد – ٤٩٧ للهجرة – احتدم القتال بين الامير بودوان صاحب « أورفة » والسلطان « جكرميش » صاحب الموصل ، وانتهى الصراع بهزيمة الافرنج في معركة حران هزيمة منكرة ووقوع بودوان في الأسر ، وتعرضت الامارات الصليبية في شمال سورية من جراء ذلك لخطر الانهيار

وكان بودوان من ابطال الصليبيين المشهود لهم بالشجاعة والاقدام وحسن التدبير ، فارتاعت لوقوعه في الأسر خواطرهم ، وراحوا يعدون العدة اما للانتقام له من قاهريه ، واما لافتدائه منهم بالمال ، بعد أن ساقه جكرميش الى الموصل حيث اعتقله في حصن منيع . في انتظار ما تخبئه له الايام

وحدث بعد معركة حران ببضعة شهور ، أن كانت احدى قوافل المسلمين في طريقها الى العراق ، وفيها نساء بينهن « صفية خانم » ابنة الأمير « الجاولي » من قواد الترك المغاوير ، واحد اقارب «جكرميش» المعززين ، فلما اصبحت القافلة على مقربة من « تل باشر » اعترضتها شرذمة من فرسان حاميتها الافرنج في ساعة مبكرة من الصباح ، ففتكوا برجالها ، واستولوا على بغالها وجمالها المثقلة بالأحمال ، وتركوا النساء هائمات على وجوههن في قفر لا ماء فيه ولا نبات !

ولكن ، ما قربت الشمس من الغروب ، وبدأ الليل يسدل ستره على التائهات الشريدات ، وقد افترشن الأرض وتوسدن الصخور ، حتى اقبل عليهن خمسة فرسان من الصليبيين يقودون وراءهم عشرة بغال ، وخاطبهن احد هؤلاء الفرسان قائلا :

– معذرة أيتها السيدات ، على ما بدر من رجالي نحوكن من اساءة جئت الآن أكفر عنها .. ليس من شيم الفرسان، ولا يليق بأبطال الحروب ، ان تترك النساء في العراء بلا مأوى ولا زاد . فاليكن هذه البغال وما تحمله من أرزاق ، وسأسير معكن غدا ، فأرافقكن الى حدود امارتي معززات مكرمات !

وهكذا كان ..

وقصت « صفية خانم » على ابيها ما حدث لها ولاخواتها مع ذلك الفارس الصليبي ، الذي لم يشأ أن يذكر لها اسمه ، والذي لولاه لما بلغت ارض الأمان على قيد الحياة

مات جكرميش وخلفه في امارة الموصل صديقه « الجاولي » ،

فجعل يرسم الخطط لتوسيع ملكه على حساب جيرانه من امراء الافرنج.
وكان الأمير بودوان لا يزال أسيرا فى القلعة ، فأبلغ السلطان الجاولى أصدقاء الاسير واقاربه أنه مستعد لاطلاق سراحه واعادة حريته اليه مقابل فدية قدرها سبعون ألف دينار ، ومعاهدة يوقعها الطرفان ويتعهدان فيها بالتعاون فى السراء والضراء ·

وما اذيع هذا القرار حتى تناقله الناس من قلعة الى قلعة ومن مدينة الى أخرى · وبعد بضعة أسابيع من اذاعته ، وفد على مقر الجاولى فارس صليبى لا يرافقه أحد ، وطلب المثول بين يدى السلطان ، فأجيب الى طلبه

قال الفارس الغريب :

ـ أيها الأمير . انا جوسلان دى كورتينى ، صاحب تل باشر وصديق الأمير بودوان الذى تحتفظ به أسيرا عندك . كنت بين القواد الافرنج الذين وقعوا فى الأسر مع الامير ، فى معركة حران ، ولكننى افتديت نفسى بالمال واستعدت حريتي وجئت الآن أفتدى صديقى ···
ولما كنت لا أحمل من الفدية التى قررتها الا ثلاثين ألف دينار ، فخذها واطلق سراح الأسير ، على أن يبعث اليك بالباقى بنفسه ، بعد عودته الى مقر امارته ..

ـ ومن يضمن لى ذلك ؟

ـ انا .. ! فسأبقى رهينة لديك ، ريثما ينفذ الامير بودوان ما يتعهد به

سيكون لك ما تريد ، لانك تضرب لنا مثلا رائعا فى الوفاء ، وفى الفداء ..

واطلق السلطان الجاولى سراح امير اورفة ، واستبقى عنده الامير جوسلان رهينة شرف ، بعد أن ظل الأول فى الأسر اربعة أعوام ...

***

دخلت صفية خانم على أبيها فى حجرته ، والتأثر ظاهر على محياها ، وقالت بصوت متهدج مضطرب :

ـ أبى ! .. أتذكر ما رويته لك عن ذلك الفارس الذى رافقنى وصويحباتى الى حدود امارته ، يوم باغتنا الصليبيون وفتكوا بقافلتنا بالقرب من تل باشر ؟

ـ اذكر جيدا يا بنيتى !

ـ أبى .. ان الفارس الذى انقذنا من الهلاك فى ذلك الظرف العصيب ، هو الرجل الذى تحتفظ به رهينة لديك ، ريثما يرسل اليك أمير اورفة بقية فديته !

أواثقة أنت مما تقولين ·

ـ كل الوثوق . فقــد رأيته من نافذة حجـرتي ، يتمشى في الحديقة ، ولم يخطىء نظري .. انه هو بعينه ، ذلك الشهم الهمام !

ـ لو علمت ذلك من قبل ، لاطلقت سراح صـديقه بلا مقابل ، ولاعدتهما الى أهلهما بحراسة رجالي ، كما أعادك واخواتك اني بحراسة رجاله .. !

ونادى السلطان الجاولي حاجبه وأمره بان يأتي بالأسير الافرنجي في الحال

وجيء بجوسلان دي كورتيني ، فحياه السلطان ورد الرجل التحية على الطريقة الشرقية ، وقال :

ـ لك أن تأمر بما تريد أيها السـيد . ولكن ليس لك أن تخل بشروط العهد الذي قطعته على نفسـك . !

فأجاب السلطان

ـ ما ناديتك أيهـا السيد لابلغك اخلالي بالعهد ، بل لاخبرك بانني تنازلت عن عشرة آلاف دينار من فدية بودوان أمير أورفة !

فانحنى جوسـلان أمام الجـاولي ، واخذ طرف ردائه ليقبـله . لكن السلطان لم يمكنه من ذلك ؛ بل مد اليه يده ليصافحه قائلا :

ـ انهض أيها السيد . فان انحناءك هذا ليساوي عندي عشرة آلاف دينار أخرى ، أتنازل عنها أيضا من فدية الامير صديقك ! وانت اليوم ضيفي ، وسأقيم لك مأدبة فاخرة ، يدعى اليها من رجالي أمهر الفرسان وأبرع الرماة !

***

خرج السلطان ومدعووه ، بعد المأدبة الى حلبة المباراة ، حيث كانت الخيول المطهمة تنتظر فوارسها ، وهي تضرب الأرض بحوافرها تواقة الى الجرى وخوض العجاج .

وقال الجاولي لضيفه :

ـ أيها السيد جوصلان ، اننا نعهـدك فارسا لا يشق له غبار ، وضاربا بالسيف لا يجاريه في الميدان ضارب ، فهل لك أن تشرف رجالي بالاشتراك معهم في هذا العرض الذي أعددته اليوم تكريما لك ؟

ـ سمعا وطاعة !

ـ اليك اذن درعي ، واليك سيفي ورمحي . واليك هـذا المهر الادهم الذي جاءني هدية من نجد ، فألفيته أسرع الخيول التي عرفتها !

صال الفارس الصليبي على ظهر جواده في الميدان وجال ، وعرض امام السلطان ورجاله من ضروب الخفة والمهارة والاحكام ما ادهش عقولهم وأثار اعجابهم . فصفقوا له طويلا ، وهتفوا عاليا ، وصافحوه بعد المباراة مصافحة الابطال للابطال !

وقال السلطان وقد انبسطت أساريره بشرا وارتياحا :

ـ لقد تنازلت أيها السيد عن البقية الباقية من الفدية فتقبل المهر والدرع والرمح والسيف ، هدية مني ، وأنت منذ الســـــاعة حر طليق !

***

دخل جوسلان دى كورتيني على السلطان الجاولي مودعا قبل رحيله عن القلعة ، فاذا به يجد في القاعة سبع نساء بينهن ابنة السلطان صفية خانم ..!

وخاطبه مضيفه قائلا :

ـ أيها السيد : هؤلاء هن النساء اللواتي انقذتهن من الهلاك في وعر تل باشر ، جئن يشكرنك على حسن صنيعك . فتقبل شكرهن كما تقبلت هديتي ، ولنكن من الآن صديقين وفيين !

فبهت جوسلان دى كورتيني ، وتذكر تلك الوجوه التي أعاد اليها الهدوء والاطمئنان منذ سنوات ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأكب على يد السلطان وقد بلغ منه التأثر مبلغه . فصافحه الجاولي ، ثم عانقه قائلا :

ـ سر بالسلامة ورعاية الله . وســـيرافقك رجالي الى حدود المملكة . طابت أيامك ! .

وانطلق الأسير الافرنجي على متن جواد أصيل ، عائدا الى قلعته .

زهرة البرتقـــان

وضع اكليل من زهر البرتقان على رأس العروس ،
عادة نقلها الصليبيون الى الغرب من الشرق ! ..



ومنذ ذلك الوقت تضع العروس في الغرب اكليلا من زهر البرتقال

وضع الكونت دى تولوز ، ريمون دى سان جيل ، نصب عينيه هدفا واحدا ، جعل يسعى لبلوغه بكل ما أوتى من قوة وملك من وسائل ، وهو انشاء امارة على سواحل لبنان، والاستقلال فيها عن بقية الامارات الصليبية ومملكة أورشليم ، بعد ما فقد كل أمل في احتلال المقام الاول بين قواد الصليبيين وأقيالهم • ووقع اختياره على مدينة طرابلس، فاعتزم الاستيلاء عليها : وانتزاعها من أصحابها بني عمار ، ليجعلها أكبر مرفأ في الشرق، على أمل أن يتخذها في المستقبل ـ أو يتخذها خلفاؤه من بعده ـ قاعدة لتوسيع الامارة ، وادخال جبال لبنان كلها في نطاقها •

جمع فرسانه ورجاله وعماله ، ووعدهم بخير عميم ومجد عظيم ، فانصرفوا الى العمل باشاراته وقيادته ، وشيدوا له في سفح الجبل المطل على المدينة ، قلعة منيعة أطلق عليها اسمه ، وهي لا تزال الى اليـــــوم قائمة في مكانها ، تشرف على طرابلس الممتدة تحت أقدامها ، وتعرف بقلعة « سنجل » وهو تحريف لاسم سان جيل ، وراح الصليبيون يشنون الغارات على المدينة فيصدهم عنها بنو عمار مرة بعد مرة • ولكن صاحبها « القاضي فخر الملك بن عمار » ، خشى مغبة ذلك التحرش ، فجـرد جيشه بكامله في عام ١١٠٤ للميلاد ـ الموافق لعـــام ٤٩٧ للهجرة ـ وثب على القلعة بغية مفاجأة الصليبيين فيها والتخلص من جيرتهم المقلقة • لكنه فشل في محاولته ، وصمدت القلعة في وجهه ، فعاد الى المدينة بعد أن أنزل بخصومه الخسائر وأضرم في محصولاتهم النيران ••

وترك المهاجمون وراءهم في تلك الغزوة بضع عشرات من القتلى ، وحملوا معهم الجرحى في انسحابهم • وخرج الافرنج من قلعتهم يوارون الجثث التراب عملا بالعادات المرعية بين المتحاربين في ذلك العهد ، حيث كان الخصم يدفن جثة خصمه بعد مصرعه •

عثر الصليبيون بين الجثث العربية المبعثرة في مكان المعركة ، على جريح لم يلفظ أنفاسه الاخيرة بعد ، وقد أصيب بضربة سيف في عنقه، فانتحى ناحية واستجمع قواه ، وجعل يغالب الموت محاولا وقف النزيف، ولكن الدم المتدفق من الجرح أفقـده الوعي فوجده رجال ريمون على تلك الحالة ، وهو يعاني حشرجة النزع ، فنقلوه الى داخل الحصن حيث انصرفت النساء الى العناية به ، لافرق في نظرهن بينه وبين الجرحى من رجال الحامية الافرنجية ، فما لبث ان أفاق من غيبوبته ، واستعاد حواســــه • وكانت صاحبة الفضل الاول في انقاذه من الموت ، فتاة من مدينة « بوردو » تدعى « روز بايو » ، تبناها ريمون دى تولوز صاحب القلعة بعد مصرع والدها

في معركة على أبواب طرابلس ، وعهد اليها في ادارة أعمال الاسعاف والسهر على الجرحى والمصابين ٠

مرت ستة أسابيع على دخول الفارس الطرابلسي قلعة « سان جيل » وما ان أشرف على الشفاء حتى كانت أواصر الصداقة قد توثقت بينه وبين الفتاة التى أعادت الى جسمه الحياة والى نفسه الاطمئنان ٠ فعرف قصتها وعرفت قصته ٠

هى ابنة « لويس بايو » ٠ خطبها ابن عمها « شارل بايو » ، لكنه جرح فى معركة فى جبال طورس ، فبترت ذراعه اليمنى واضطر الى العودة الى وطنه فرنسا ، على أمل ان تلحق به خطيبته في أول فرصة سانحة ٠ ثم مات والد الفتاة فاصبحت وحيدة في العالم ، وحل ريمون دى تولوز محل أبيها ، واعدا بأن يمهد لها سبيل الرجوع الى بوردو فى أقرب وقت

أما هو ، فاسمه «طاهر» وأبوه «ملاعب الطرطوسي» نسبة الى مدينة طرطوس ٠٠ كان من فرسان الحرب الاشداء ، وقتل فى الدفاع عن مدينة حمص عند ما هاجمها الصليبيون فالتحق ابنه طاهر في خدمة بنى عمار أصحاب طرابلس ، وتزوج فتاة من بنات هذه الاسرة ، فرزق منها ثلاثة أطفال ، ماتت وهى تضع ثالثهم ، فتولت أخته « زينب » تربيتهم ، ولم يتخذ هو زوجة أخرى

قالت روز : « سأطلب من أميرنا ريمون دى سان جيل الافراج عنك لكى تعود الى أختك وأولادك ! »

وقال طاهر : « شكرا لك ٠٠ ولن أنسى ما حييت انك أنقذتنى من الموت ، وأرجو أن يسمح سيد هذه القلعة بأن تزورى أختى فى طرابلس ، وبأن تزورك أختى هنا ! »

أمر ريمون دى سان جيل بأن يطلق سراح الجريح طاهر الطرطوسى ، وبألا يعترضه أحد عند ما يطلب من الحراس دخول القلعة لزيارة « روز» فعاد الرجل وقد شفى من جراحه الى أولاده وأخته ، وأطلع القاضى فخر الملك على ماحدث ، فوافق الامير العربى على ألا يحال بين الفتاة الفرنسية وزيارة صديقها ، ولا بين طاهر الطرطوسى والتردد على قلعة سان جيل ٠٠٠

وجاء طاهر الى القلعه ذات يوم ومعه أخته زينب ، ثم عاد ثانية فثالثة فرابعة ، ونشأت بين الفتاة المسلمة والفتاة المسيحية علاقة صداقة متينة توثقت عراها مع الايام ، فصارت « روز » لا تطيق صبرا على غياب زينب، وزينب لا تطيق صبرا على غياب روز ، وطاهر لا يشعر بالسعادة تغمره والهناء يملأ صدره ، الا عندما يجد نفسه بين الفتاتين مجتمعتين معه ، الاخت التى تولت تربية أبنائه ، والغريبة التي انتزعته من مخالب الهلاك!

وتزوجت زينب شابا من فرسان الحرس بقصر بني عمار ، فدعيت صديقتها الفرنسية لحضور حفلة العرس فى منزل طاهر ، الجاثم بين أشجار النارنج والبرتقال ، فى البساتين المحيطة بطرابلس ، وكانت زينة الحفلة أغصان تلك الاشجار الخضراء وأزهارها الناصعة البياض اذ غطيت بها

الجدران وفاحت رائحتهـــا المسكرة فمـــلأت جوانب الدار . وأديرت على المدعوين آكواب الشربات ، وأطباق الحلويات ، وقماقم العطور ، وكلها مصنوعة من أزهار النارنج والبرتقان . في المدينة التي تعد موطن هذه الاشجار المختار ، وجنانها الفيحاء ...

وفي مطلع سنة ١١٠٥ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩٨ للهجرة ، فاضت روح ريمون دي سان جيل ، سيد القلعة وقائد الصليبيين فيها ، وفقدت روز بايو سندها ومعينها ، فقررت العودة الى وطنها فرنسا ، للقاء خطيبها في مدينة بوردو

وكان وداع اصدقائها العرب مؤثرا اسال من المآقي الدموع . فقد بكت روز بايو ،وبكى طاهر الطرطوسي وأبناؤه الصفار ، وبكت أخته زينب وزوجها ، لفراق الفتاة التي كانوا جميعا يعدونها عضوا من أسرتهم . وعندما صافح طاهر صديقه ومنقذته . قال بصـــوت متهدج : ـ ان في الصدر أشياء ياروز لا يجرؤ اللسان على الافصـــاح عنها ، لانها صعبة التحقيق . فالافضل ان اكتم سري بين الضلوع !

فأجابت الفتاة بصوت متهدج ـ مثل صوته ـ : ان تلك الأشياء التي يختلج بها صدرك ياطاهر ، يتردد صداها في صدري أيضـــا . ولكنني أكتم مثلما تكتم أنت .. فان الاقدار التي جمعت تأبى الا أن تفرق . ولن انسى ماحييت ، أصدقائي فيطرابلس وحدائقها الغناء ، وأزهار البرتقان فيها ! ..

قال طاهر : ـ لهذا ، سنحملك ايتهاالصديقة الوفية ، قوارير من حلوى الزهر ، وشراب الزهر ، وماء الزهر ، وأغصانا من برتقاننـــا بأزهارها اليانعة ، فهي في عرفنا رمز الرخاء والسعادة والجمال » !.

***

لم تشهد مدينة بوردو عيدا أجمل من ذلك العيد، ولا عرسا أوفر بهجة من ذلك العرس . فقد توافد السكان جميعا على ساحة الكنيسة لمشاهدة العروس القادمة من الشرق ، والتي ظـــل ابن عمها وخطيبها « شارل بايو » ينتظر عودتها بضعة اعوام . وقد أبت العروس الا ان تكون أغصان البرتقان وأزهاره زينة تلك الحفلة ، فحملوا اليها أكواما منها . جاءوا بها من البساتين التي غرسها العرب فيجنوب فرنســـا والتي نقلت اشجارها من الأندلس .

وضعت « روز » على رأسها اكليلا من أزهار البرتقان ، وضمـــت بين انامها باقة منها ، وعند مارفع الكاهن يده ليبارك زواجها ، انحدرت من عينيها لؤلؤتان ناصعتان سقطتا على تلك الباقة فارتشفتهما أزهارها البيضاء . . .

ومنذ ذلك الوقت ، انتشرت في فرنسا ،ثم في بلدان الغرب كلها ، عادة وضع اكليل من زهر البرتقـــال على راس العروس ، وباقة منـــه في يدها ، وأصبح ذلك الزهر الابيض العطر ، رمز الطهر والعفاف ،في نظر الغربيين منذ عهد الصليبيين واختلاطهم بالعرب حول مدينــة طرابلس الفيحاء ، موطن النارنج والبرتقان .

الأسماك المقدسة

مدينة طرابلس بلبنـــــان لا تزال تباهى باسماكها المدللة . فهى لا تخاف الناس ، بل تنظر اليهم بعيون كانها عيون البشر : انها واثقة من ان انسانا ما لن يفكر فى ايذائها !

وقفت الحسناء «سهام» على حافة البركة تضحك للاسماك وتداعبها ، وهي تلقى اليها بالحبوب وفتات الخبز والدود الصغير الذى جمعته خصيصا لها من حول البساتين ٠

كلها اليفة . لا تهرب من خيال ولا تغوص فى الماء اذا امتدت يد نحوها ولامستها ٠ تنظر الى الناس بعيون كأنها عيون بشرية ٠ فهي تعرف ـ لأن للاسماك ذكاء خاصا بها ـ أن لا أحد من أهل المدينة ولا من الاغراب الزائرين يفكر فى ايذائها أو يضمر لها غير العطف والرغبة فى مدها بالغذاء .

أن مدينة « طرابلس » الميناء الرابض على ساحل البحر فى ظلال جبل لبنان الشمالى ، تفاخر بأسماكها وتباهي ، وأهل المدينة يرعونها بعنايتهم ويحيطونها بالخرافات والاساطير ـ وكثيرا ما تلتقى الاساطير والخرافات بوقائع التاريخ الثابتة الأكيدة !

فقد تناسلت هذه الاسماك وتكاثرت وتوالدت جيلا بعد جيل ، منذ عهد الفينيقيين أرباب البحار . يوم كانت طرابلس أحد المرافىء التى تنطلق منها سفنهم لكشف المجاهل وربط الاقطار بعضها ببعض

كان الفينيقيون يعنون بتربية الاسماك ويقدسونها . وقد بنوا لها في موانيهم البرك والاحواض ، التى كانت فى ذلك الوقت بمثابة حدائق الحيوانات في عصرنا الحاضر ٠

وبانقراض الفينيقيين ، انقرضت أيضا أسماكهم المقدسة من الموانىء ، ماعدا تلك الاسماك التى بقيت مدينة طرابلس محافظة عليها خلال القرون المتعاقبة ، وبالرغم من تدفق الغزاة عليها فوجا بعد فوج

تلك هى الاسماك التى وقفت «سهام» على حافة البركة تلقى اليها بالدود والخبز والحبوب ..

وووقف أبوها « عامر الصفوانى » يرمقها بناظريه من باب البيت القريب . ولما طال انتظاره ، خاطبها قائلا :

ـ كفاك اهتماما بالسمك اليوم ياسهام . فابن عمك « طالب » ينتظر فى الداخل مع امك ، لمواصلة الحديث الذى بدأنا به . وقد تحمل مشقات كثيرة فى طريقه الينا ٠

« طالب الصفوانى » هو ابن أخيه . جاء من دمشق الى طرابلس لزيارة عمه وأسرته ، وهو يرغب فى ان تصبح سهام زوجته . وعمه

موافق على هذا الزواج . وامرأة عمه موافقة أيضا . والفتاة لا ترفض ولكنها تشترط عليه بأن ينتقل من دمشق ليقيم معها فى طرابلس . فهى مصرة على الا تفارق أهلها ، وعلى ان تبقى أيضا قريبة من الاسماك الحبيبة الى قلبها !

ردت على أبيها بصوت كله نعومة وحنان : ـ لقد انتهيت من اطعام الاسماك يا أبى . وهاأنذا قادمة اليك . ولكن ، هل وافق ابن عمى على الشرط الوحيد الذى اشترطته عليه ؟

فأجاب الاب :

ـ وافق يا ابنتى ! وافق بعد تردد طويل . وهذا مايسعدنى ، كما يسعدك بلا شك !

فهرولت الفتاة مسرعة الى الدار !

كان يحكم طرابلس فى ذلك الوقت امراء بنى عمار العرب . ويعتمدون على سلاطين مصر فى مساعدتهم لحماية المدينة من خطر هجوم الافرنج عليها .

كان أول من تولى الحكم من أولئك الامراء الشجعان ، أبوطالب عمار ، فى سنة ١٠٧١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٦٣ هجرية . وظلت سلالته تحكمها ثمانية وثلاثين سنة .

أنشأوا فيها مكتبة زاخرة بالمؤلفات والوثائق ، جلبوها من الشرق ومن الغرب على السواء من الهند وبغداد ودمشق والقاهرة والاندلس ، فطبقت شهرتها الآفاق وقال الناس فى ذلك الوقت أن طرابلس تباهى بمفخرتين : مكتبتها ، واسماكها !

وعهد بنو عمار ، فى سنوات ولايتهم الاخيرة ، الى عامر الصفوانى من اللاذقية ، بحراسة المكتبة الثمينة والعناية بمحتوياتها ، وعهدوا فى آن واحد الى ابنته سهام فى حراسة الأسماك وضمان سلامتها من العبث ، وذلك نزولا على رغبتها واجابة لالحاحها .

فقد رأت الفتاة فى الحلم ان سمكة خرجت من البركة وخاطبتها قائلة لها بلغة سليمة : « كونى أيتها الحسناء حارسة علينا فان فى هذا ما يجلب لك السعادة والهناء ، ولكن اياك أن تمتد يدك الينا بالاذى ! »

حلم رأته الفتاة فى نومها فحققه بنو عمار . وأقام عامر الصفوانى مع زوجته وابنته فى بيت شيده له الامراء العماريون بجوار بركة الاسماك وانصرف هو الى حراسة المكتبة ، وانصرفت ابنته الى حراسة الحيوانات الاليفة ..

وكانت سهام تعتقد ، كما يعتقد اهل المدينة الزاهرة كلها ، أن فى تلك الاسماك بركة وخيرا كثيرا ، فان لم تكن لها صبغة التقديس ، كما كان يؤمن الفينيقيون الوثنيون ، فان لها على كل حال صبغة الاحترام والاجلال ، التى أسبغتها عليها الاساطير ، فأصبحت جزءا من تاريخ المدينة ، بل بيئة حية من بيئات سكانها العاملين النشطين .

ولما أراد عامر الصفواني أن يزوج ابنته الوحيدة ، واختار لها ابن أخيه طالب الصفواني من دمشق ، جفلت الفتاة في بادىء الامر ، خوفا من ان يضطرها زواجها الى الافتراق عن أسماكها الحبيبة . ولكنها فكرت في الأمر وأدركت أن ذلك الزواج يروق في عين والدها ووالدتها العزيزين عليها ، فوافقت ، ولكن على ذلك الشرط الذي فرضته وأصرت عليه .

وتم الزواج وانتقل طالب الى طرابلس واستقر في بيت عمه مع عروسه ، وأقام لهما أهل المدينة مهرجانا حول بركة الاسماك ، على دق الدفوف وأنغام المزمار !

في سنة ١٠٩٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩١ للهجرة ، وفي خلال الحرب الصليبية الأولى ، أنشأ الافرنج دولة في بيت المقدس ، وامارات متناثرة في أنحاء الديار الشامية . وجعلوا يتطلعون الى طرابلس التي اعتصم فيها بنو عمار ، ويعدون العدة للاستيلاء عليها ، وضمها الى الامارة التي أطلقوا عليها اسم « الامارة اللبنانية » .

كانت المواقع والقلاع والحصون العربية والافرنجية متقاربة متشابكة ، وكان الصراع بين الطرفين على أشده ، فريق يعمل لتثبيت مركزه ، وفريق يعمل لاسترجاع مافقد أو على الأقل للاحتفاظ بما لم يفقده بعد .

رسم الكونت ريمون دي تولوز ، أحد أقطاب الصليبيين ومنشىء الامارة الافرنجية على ساحل لبنان ، خطة الاستيلاء على طرابلس لجعلها عاصمة لامارته ، ولكنه مات قبل ان يحقق حلمه ، وترك هذه المهمة لمن خلفوه في الحكم ، وترك لهم أيضا قاعدة حصينة للهجوم وهي القلعة التي شيدها على سفح الجبل المطل على طرابلس ، وأطلق عليها اسم « سان جيل » وعرفها العرب باسم « قلعة سنجل »

في صيف سنة ١١٠٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٠٢ هجرية قرر الافرنج مباشرة الهجوم على المدينة ، بعد أن ضربوا حولها الحصار مدة طويلة ، ولكنه كان حصارا مائعا ، لم يمنع بني عمار من مواصلة الاتصال بأصدقائهم وحلفائهم خارج المدينة

توالت النجدات على الافرنج من كل صوب ، فأرسل بودوان الاول ملك القدس كتيبة من الفرسان ، وفعل مثله الامراء والحكام الآخرون ، وانضم الى المحاصرين بحارة من جنوى ، ووصلت أمام الميناء عشرات من السفن تحمل الجنود ومعدات القتال ، وأدرك بنو عمار وسكان المدينة ان المعركة الفاصلة قد دنت .

دقت الطبول وانتشرت الحامية في الاسواق ، وعززت مراكز الدفاع على الاسوار والابراج .

لكن تفاوت القوات من الجانبين كان في مصلحة المهاجمين لا في مصلحة المدافعين . وكانت نتيجة الصراع معروفة قبل أن يبدأ الهجوم ويقابله الدفاع .

المجانيق التى دكت الاسوار والابراج . لا كثرة عدد المهاجمين ولا شجاعتهم ، كانت العامل الاول الذى انهارت أمامه المقاومة .

تفاوض الفريقان فى تسليم المدينة ووضع حد لاراقة الدماء ، واتفقا على الشروط : يحق لجنود الحامية ولسكان المدينة أن يخرجوا منهـــا بأسلحتهم وأموالهم ويذهبـــوا الى حيث يشاءون ، أو أن يبقوا فيهـــا فتصان ممتلكاتهم ولا يلحق بهم أذى ولا يعاملون بعـــد احتلال المدينة معاملة المغلوبين على أمرهم .

على هذه الشروط فتحت الابـواب ودخلت القـوات الافرنجية مدينة طرابلس ، فى اليوم الثانى عشر من شهر يوليو ــ تموز ــ سنة ١١٠٩ حافظ بودوان ملك اورشليم ، والكونت برتران . صاحب قلعة سان جيل على شروط التسليم ، واحترموا العهود المقطوعة . ولكن البحارة الجنويين خانوا العهود وخرقوا الشروط !

تدفقت جموعهم الهائجة على المدينة من الميناء ، وانطلقت تحرق وتنهب وتسلب وتعتدى على الارواح وتسوق فريقا من السكان اسرى الى السفن الراسية تجاه الشاطىء .

الحوانيت أفرغت من السلع المكدسة فيهـــا . والمخازن اقتحمت وتبدد ما فيهـــا من مؤن وأدوات . والبيوت انتهكت حرمتها واحرقت محتوياتها . وساد الرعب وعمت الفوضى . واضطر الملك بودوان أن يطوف بنفسه فى أرجاء المدينة المنكوبة ، ليوقف عند حد أولئك البحارة الذين انقلبوا لصـــوصا ، ويعيـــدهم الى سفنهم التى غصت بالاســـلوب والمنهوبات .

ظن بنو عمار ان تسليم المدينة صلحا ينقذها من الخراب ، فكانت النتيجة كارثة لا تقل هولا عن سقوطها فى معركة طاحنة !

ومما اقترفه البحارة الجنويون فى ذلك اليـــوم الرهيب ، حرق مكتبة بنى عمار . فقد اتت النار التى أشعلتها أيديهم الآثيمة على تلك الثروة الضخمة ، وخسر العـــالم كنوزا ذهنية لاتقل عن الـــكنوز التى خسرها بضياع مكتبة الاسكندرية قبل ذلك الوقت ببضعة قرون ، يوم احرقها الرهبان فى فتنة من فتنهم ، قبل الفتح العربى ، ثم جاء المؤرخون المغرضون والصقوا بالعرب تهمة احراقها !

***

حول البركة التى تسبح فيها الاسماك المقدسة ، تجمع فريق من البحـــارة الثائرين . وراحوا يتسابقون فى اصطيادها ، وهى الاليفة الوادعة ، التى تعودت التقاط طعامها من أيدى الزائرين !

واشعل الاجلاف نارا والقوا عليها الاسماك التى اصطادوها !

وكان افراد أسرة الصفوانى قد اجتمعوا فى بيتهم ، بجوار البركة . فقد تلقى عامر أمرا من بنى عمار بأن يترك المكتبة بدون حراسة ، وأن

يصرف الجنود والعمــــال القائمين على صيانتها ، اعتقادا من الحكام بان المهاجمين لن يعتدوا على ذلك الصرح العلمى ، ولن يمسوا بســـوء مصدرا من مصادر الاشعاع الفكرى فى ذلك الزمن !

وأصيب عامر الصفوانى بما يقرب من الجنون ، لما رأى الدخان يتصاعد في فضاء المدينة ، وبلغه خبر العـــدوان الاثيم واضرام النار فى المكتبة القيمة ..

وارتاعت سهام وطار عقلها ، لمـا شاهدت من ناحيتها ذلك الجمع من الاعداء يعبثون بأسماكها الحبيبة المدللة ، ويشوونها على النـــار ويأكلونها مقهقهين •

هرولت اليهم صائحة فيهم : « خذوا حذركم : فان هذه الاسماك مقدسة ، لا ينجو من يعتدى عليها من غضب الســـماء ، ولا يفلت من مفعول الآيات السحرية الكامنة فى جوفها منذ اقدم العصور ، قبل أن يبشر الرسل والانبياء بالاديان السماوية ! »

نظر البحارة الى تلك الحســـناء البادية أمامهم زائغة البصر محلولة الشعر غاضبة ثائرة . وكفوا عن مواصلة العبث بالاسماك الطاهرة ، وارتفع من بينهم صوت يطلب شرابا ..

وخطر للمرأة خاطر ..

أشارت الى أبيها وأمها وزوجها . وقد لحقوا بها مرتاعين ، وقالت :

ـ هاتوا لهؤلاء الاغراب ما عندنا من طعــام وشراب ، ليتذوقوا ما تعده أنامل الطرابلسيات البارعات ، لابطال الحروب الصناديد !

دخل أفراد الاسرة الى البيت ، ثم خرجوا ثانية ، حاملين ما لذ وطاب !

كانت المأدبة فاخرة ...

دارت الاطباق والطاســات والقوارير والاقــداح والاباريق على الجنود الفرحين الضاحكين ، بما فيهــا من حلوى ومربيات ، وماء الزهر وشراب الورد وعصير النارنج والبرتقان •

فالتهموا بشراهة ، وشربوا بلا وعى !

وما انقضى قليل من الوقت ، حتى كانت الاصوات قد خفتت ، والضحكات قـــد تلاشت وأعقبتها أنات وتأوهات تنبعث من صـــدور خمسين رجلا تفارقهم الحياة شيئا فشيئا ، ويعانون حشرجة الموت ..

ويصبحون جثثا هامدة !

أتوا على كل ماحملته اليهم الاسرة من طعام وشراب ، ولكن لم يبق منهم واحد حيا ليصف اذا كان الطعام لذيذا والشراب منعشا !

وتجمع الناس حول الجثث المتراكم بعضها على بعض عرب مقيمون •

وأفرنج وأفدون ، وسرت بين الصفوف كلمات تناقلتها الأفواه فانتشرت بسرعة في المدينة كلها : « البحارة الجنويون اعتدوا على الاسماك المقدسة وأكلوا لحومها مشوية ، فانتقمت الاسماك من آكليها ! »

***

عاد الهدوء الى طرابلس بعد تلك المحنة . وانتقل الحكم فيها من بني عمار الى الافرنج . ورحـــل عنها فريق من أهلهـا أبوا أن يخضعوا لحاكم أجنبي ، وبقي فريق أبوا أن يغادروا الأرض التي انطوى ترابها على رفات الآباء والأجداد .

كان عامر الصفواني وزوجته ، وطالب الصفواني وزوجته ، بين الذين آثروا البقاء على الرحيل ..

واحترم الافرنج مشـــاعر السكان فصانوا الاسماك وعهدوا الى سهام بمواصلة السهر عليها وحراستها ، واعتقدوا ان قوة خفية كامنة فيها ، منذ عهد الفينيقيين الأقدمين ، وان الأساطير قـد تكون أقرب الى الحقائق مما يتصور الناس !

ولكن السكان أنفسهم ، الذين أحبوا أسماكهم وأحاطوها بالعناية وتناقلوا الخرافات عنها جيلا بعد جيل ، واشـــاعوا أنها انتقمت من البحارة الجنويين الذين انتهكوا حرمتها ، أولئك الســـكان تهامسوا فيما بينهم بالحقيقة التي عرفوها وخفيت عن الافرنج ..

فان حارس المكتبة عامر الصـــفواني وأفراد أسرته قد خلطوا الحلوى والمربيات والشربات التي قدموها للبحارة الاغراب ، بالسم الذى كان عامر يعـــده لقتـــل الجرذان والفئران وافناء الحشرات في قاعات المكتبة ودهاليزها وأقبيتها ، فأهلك دفعـــة واحدة خمســـين من أولئك المعتدين ، وثار بذلك للمكتبة التي أحرقت ، وللاسماك التي التهمت ، خمسين من شهداء طرابلس الذين غدر بهم البحارة الجنويون بالرغم من العهد المقطوع !

وحكم الافرنج مدينة طرابلس مائة وثمانين سنة ، واسترجعها منهم الملك المنصور قلاوون في سنة ١٢٨٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٨ هجرية ، يوم كانت سورية ومصر تؤلفان دولة واحدة ، في عهد سلاطين المماليك .

والذين يزورون طرابلس اليوم ، وهي عاصـــمة لبنان الشمال ، يرون الأسماك المقدسة تتلاعب وتتماوج في بركتها الواسعة ، والناس من حولها يلقون اليها الطعام ، كما كانت تفعل ســـهام زوجـــة طالب الصفواني ، في عهد بني عمار الكرام !

أبو الجراح

الأبطال الشرفاء يحرصون على ما يسميه المؤرخـــون « آداب الحـروب ! » ...

كانت المعركة على أشدها ، ومياه نهر العاصي المصبوغة بالدم تجرف جثث القتلى في تيارها . وقد آذنت الشمس بالغروب دون ان ترجح كفة أحد الفريقين المتقاتلين

وكان « مودود » ـ صاحب الموصل ـ يحث فرسانه على شق طريقهم نحو جيش الصليبيين لمنعه من الارتداد في اتجاه معاقله ، وعيناه شاخصتان الى ناحية معينة من الميدان ، طلب اليه حلفاؤه الامراء أن يحول دون تسلط العدو عليها لحماية مؤخرته٠وفار فائره وهو يرى رجاله يتقهقرون عن هذه الناحيـــة ٠ وحدانا وجماعات ، أمام فارس صليبي واحـــد ، فصاح بهم :

ـ الا أجد بينكم ندا لهذا الفارس ، يجيئني به حيا أو ميتا ؟

فاندفع عشرات آخرون اندفاع الريح الهبوب ، نحو المنفذ الذي كان الصليبي يحميه بمفرده ٠ ولكن وثبتهم تحطمت كمـا تتحطم الموجة على صخرة الشاطيء . وظل ذلك البطل المجهول يتلقى ضربة ويوجه عشرا ، دون ان يفوز به أحد ، أو يتزحزح قيد شبر عن مكانه !

لم تكن معركة شيزر من المعارك الفاصلة بين المسلمين والصليبيين ولكنها كانت محكا لقوة هؤلاء وقوة أولئك ، وقد أرادها كل من الطرفين تجربة لعجم عود الآخر ، ومعرفة قدرته على الكر والفر والجلد على القتال٠

تحالف أمراء الافرنج في ســـورية ولبنان من جبال طوروس الى حدود مصر ، وعزموا على التوغل شرقا نحو الفرات . وقابلهم أمراء العرب والاعجام بمحالفة جمعت تحت لواء واحد أصحاب دمشـــق والموصل وحلب وشيزر وغيرها من الديار والامصار ، والتقى الجيشان على ضفاف نهر العاصي ، بالقرب من قلعة شيزر ، في الخامس عشر من شهر ســبتمبر ـ ايلول ـ عـــام ١١١١ ـ للميلاد الموافق لعام ٥٠٤ للهجرة ودارت رحى القتال ، فشهدت تلك البقعة ـ التي اختـارتها الاقدار بين بقاع سورية لتكون على مر الأجيال مسرحا للحرب والنزال حلقة أخرى من حلقات البطولة والشهامة ، التي امتازت بها تلك الحقبة من التاريخ

لم تســفر المعركة عن نتيجة حاسمة ، وعزم كل من الجيشين المتحاربين على التراجع الى المواقع الحصـــينة التي اتخذها قاعدة لزحفه ، وكان جيش الصليبيين البادىء في الارتداد غربا . فشـجع ذلك جيش المسلمين على تعقب مؤخرته ، ومضـــابقة فرســانه في

انســحابهم ، بامطارهم وابلا من السهام ، ومحاولة الالتفاف حول أحد جناحيه لقطع خط الرجعة عليه .

في تلك المرحلة من المعركة ، وقع الحادث الذي أبدى فيه ذلك الفارس الافرنجي ضربا من ضروب الشجاعة والبطولة تحدثت به الركبان واثار اعجاب المسلمين وخصومهم على السواء .

ذلك هو الفــارس الذي دعا مودود صاحب الموصــل رجاله الى زحزحته عن طريقهم ، والذي أوقف المهاجمين في وثبتهم الى الامام ما يكفي من الوقت لكي تصبح مؤخرة الصليبيين في مأمن من خطــر التطويق !

هاجمه رجال مودود جماعات جماعات ، فقتل حصانه ، واصيب بجراح عدة جعلت جسمه قطعة متحركة حمراء قانية . وجندل حوله الأبطال فكان يحتمي خلف أشلائهم ويواصل المقاومة والدفاع ، حتى أدرك في النهاية ان الخطر قد زال عن رفاقه ، فوثب على ظهر جواد سقط فارسه في الميدان ، وانطلق يعدو مسرعا ليلحق بقومه ، تاركا وراءه آثارا من دمائه المتدفقة .

وعاد رجال مودود الى قائدهم يقولون :

— هذا شيطان على ظهر حصان !

***

ومرت أســابيع . وكان كل من الفريقين يعد العدة لاستئناف القتال ، متخيرا له ميدانا صالحا ، محاولا أن يجر اليه الفريق الآخر بالتحدي أو الخديعة . وفي ذات مساء ، وصل أمام أسوار شيزر فارس غريب ، حاسر الرأس ، يلتحف بمعطف شرقي ، يحمل عدة القتال معلقة في سرج حصانه ، وقال للحارس الذي صده عن باب القلعة ، انه جاء برسالة الى صاحبي شيزر ، الأميرين : سلطان ، ومرشد .

ومثل الرجل أمام الأميرين الأخوين ، فانحنى احتراما واجلالا ودفع اليهما رقعة سطرت فيها هذه الكلمات :

« من تنكريد أمير انطاكية ، الى البطلين العظيمين سلطان ومرشد صاحبي شيزر . سلام . — ان الرجل الذي ينقل اليكما هذه الرسالة فارس افرنجي مكرم ، جاء الى الارض المقدسة لزيارة قبر السيد المسيح . وهو الآن يعتزم العودة الى بلاده وذويه ، بعد أن وفى نذره . وقد أبدى رغبته في أن يزوركما ويحيي رجالكما الشجعان الذين حاربهم في الميادين . وهأنذا أجيبه الى طلبه ، وأوصيكم به خيرا » .

طويا الرقعــة ، وأمعنا في النظر الى الرجــل : انه في نحو الاربعين من العمر ، شديد البنية ، مفتول الذراعين ، حاد البصر ، في وجهه ويديه آثار جروح عدة ، أبرزها شجة فظيعة تمتد من جبينه الى فمه ، مارة بين العينين وسط الأنف والشفتين ، تجعل ذلك الوجه على جانب عظيم من القبح والتشويه ، وتثير في الناظر اليه شعور الرهبة الممزوجة بالاشمئزاز !

قال سلطان :

ـ اهلا بك يا اخى ،انت هنا بين اناس يجلون الشجاعة والبطولة !

وقال مرشد :

ـ انت ضيفنا لبضعة أيام . وسيقابلك رجالنا بما انت جدير به من محبة واعجاب واكرام .

وأضاف الاخوان معا

ـ ما اسمك !

فأجاب الغريب بلغة عربية نطقها بلهجة أبناء البلاد :

ـ ان الاسم الذى كنت أحمله عندما جئت الى الشرق منذ عشرة اعوام قد أصبح نسيا منسيا . فرفاقى أنفسهم لا يعرفونه ، وقد أوشكت انا ايضا أن انساه . فأنا عند الصليبيين « ابو الجراح » وقد اوحت اليهم بهذه التسمية مئات الطعنات التى تلقيتها فى الميادين ، وليست الطعنات التى أصابتنى فى معركة « شيزر » بأقلها خطرا !

فانتفض الأخوان ، وقالا معا :

ـ شيزر ؟ .. انت رجل شيزر ؟ انت رجل المضيق ؟

ـ نعم ، أنا هو .. لقد وقفت فى وجه رجالكم لانقاذ مؤخرة جيشنا ، فتم لى ما أردت ، ولكننى حفظت فى أعماق نفسى ذكرا لايمحى لأولئك الذين نازلتهم وتبادلت معهم أروع الضربات التى عرفتها فى حياتى . وما جئت الى هنا الا لاصافحهم واعانقهم ، واطلب اليهم ان يحفظوا لى أيضا ذكرا طيبا فى نفوسهم . اننى عائد الى وطنى بعد ان زرت قبر المسيح وقبلت الأرض التى وطأتها قدماه ، وبكيت فى المراحل التى اجتازها الى قمة جبل الجلجلة . وساهمت فى الحروب طيلة عشرة أعوام بلا انقطاع ، فلاقيت فيها أبطالكم ، وعرفت فى خلالها لذة النصر ومرارة الهزيمة . ولذلك جئت احييكم تحية الشجاع للشجعان . قبل أن أرحل عن هذه الارض التى أحببتها .

فوقف سلطان ومرشد ، ثم دعيا رجال الحامية فى الحصن الى الشخوص خارج الأسوار ، وأخذ الفارس الغريب كل منهما بيد ، وطلبا اليه ان يلبس درعه ويتقلد سيفه ويضع خوذته الفولاذية على رأسه ، ويعرض معهما صفوف الأبطال الذين جاء يحييهم ، فردوا اليه التحية بأطيب منها ، رافعين السيوف فوق رءوسهم هاتفين للفارس المغوار الذى خبروا بأنفسهم حسن بلائه فى الميادين !

وقضى الرجل ثلاثة أيام فى الحصن ضيفا على الأخوين سلطان ومرشد . ثم عاد من حيث أتى ، وانقطعت اخباره عن الناس أجمعين . ولكن أعماله قد دونت فى سجلات البطولة . فذكره الافرنج فيها باسم « ابو الجراح » تمجيدا للاصابات المديدة التى مزقت جسمه دون أن تقضى عليه ، وذكره العرب باسم « الفارس الأشج » نسبة الى الشجة الكبيرة التى أحدثها فيه أحد فرسانهم ، فى معركة شيزر .

يد تحرك .. ويد تضرب !

قصة قاتل لم يقتل ، وفائز بجائزة سباق لم يشترك فيه ، وصاحب فضل لم يتفضل على احد بشيء ...

قالت « الكونتس هوديرن » وهى تشير بيدها الى كيس ملقى على الارض بجوار مقعدها :

ـ خذ ياجندل : هذا هو المبلغ الذى اتفقنا عليه . فوزع منـــه على شركائك ما شئت ، واحتفظ بمـا شئت . فليس لى أن أتدخــل فى التفاصيل . وانما الذى يهمنى اولا وآخـرا ، أن تكون قد اعددت للأمر عـدته ، وأن يتم كل شىء وفاقا للخطة التى رسـمناها . فهل يمكننى الاعتماد عليك ؟

واجاب « جندل » وهو يمد يده لاخذ الكيس :

ـ كل شىء سائر على ما يرام يا مولاتى . فسافرى بسلامة الله مطمئنة النفس مرتاحة البال ..

ـ ولن يعرف احد مادار بيننا من حديث ، وما تم من اتفاق ؟..

ـ وهل شـاهد اجتماعنا يامولاتى ، أو سمع حديثنا ، غير الله وحده ؟

ـ ان الله يا جنـدل لن يحاسبنى على ما أنا عازمة عليـه . فان بقاء الكونت زوجى على قيد الحياة لمجلبة لمشكلات لا حصر لها ولا حد، لى ولهذه الامارة ولكم جميعا . ثم ان الله يحاسب الفاعل على ما يفعل. وأما أنا فسأكون بعيدة عن المدينة عندما يضرب اصحابك ضربتهم .. وارجو ان تكون صائبة !

ـ وستكون الضربة كما ترغبين يا مولاتى !

ـ الى اللقاء اذن . ولتكن أيامك سعيدة يا جندل ، بقدر ما أرجو ان تكون أيامى فى المستقبل سعيدة ايضا !..

***

عاد « جندل بن عون » من قصر « الكونت ريمون الثانى » صاحب طرابلس ، الى بيته الصغير الكائن على المرفأ ، وعلى محياه امارات الغبطة والارتياح . وطلب من زوجته أن تغلق الباب وتوصده بالمزلاج ، ثم دفع اليها بكيس كان يخفيه فى طيات ثوبه العربى الفضفاض ، وقال بصـوت خافت :

ـ خذى يا امراة ! .. خذى ، بل اغترفى من هـذا الكيس ملء

قبضتيك مرة بعد مرة ، فقد اصبحنا عند طلوع الشمس اليوم فقراء، ولكننا أمسينا عند غروبها من كبار الاغنياء !

كان الكيس مملوءا ذهبا وفضة ، وشعرت الزوجة بأن الارض تميد تحت قدميها ، وأن البيت يدور بها ، ولكنها تمالكت نفسها وتمتمت سائلة :

ـ من أين لك هذا يا جندل ؟ هل سرقت ؟ هل قتلت ؟ هل ورثت؟

فأجاب الزوج ضاحكا :

ـ لا قتلت ولا سرقت ولا ورثت . وكل ما صنعت انني تعاقدت مع جماعة من العظماء على عمل تعهدت بانجازه ، وهذا هو الاجر الحلال !

والحت المرأة على زوجها بأن يفضي اليها بالتفاصيل ، ويقص عليها ما جرى بينه وبين أولئك العظماء الذين جعلوه ينتقل فجأة من طبقة الفقراء الى مصاف الاغنياء ، لكي تفرح لفرحه ، وتشاركه السراء بعد أن شاركته الضراء . .

وتجاذب الرجل دافعان : دافع الحرص على السر الذي طلب منه كتمانه ، ودافع التفريج عن نفسه باطلاع زوجته المحبوبة على ذلك السر . .

وتغلبت المرأة ـ كعادة المرأة ـ على الرجل بالالحاح والدلال والاغراء ، فقال جندل :

ـ اجلسي ، وسوف تعلمين كل شيء !

***

كان جندل بن عون ، وهو من عرب «الرها» يعمل في قصر الكونت ريمون كخبير في تربية الخيول العربية . وكانت زوجته « بانسون » تقوم بأعباء البيت وتعنى بأطفالها الثلاثة . ولكن الكونت كان يجهل أن الرجل الذي وضع فيه ثقته ، وائتمنه على خيوله ، لم يكن أهلا للثقة والامانة . فان جندل بن عون كان في الواقع رسولا من رسل الملك العادل نور الدين بن محمود زنكي صاحب حلب ، أوفده للتجسس على الامراء الصليبيين في معاقلهم وحصونهم وولاياتهم ، فاستقر بجندل المقام في مدينة طرابلس ، عاصمة الامارة التي انشأها الكونت : « ريمون دي تولوز » في لبنان ، في خلال الحملة الصليبية الاولى ، والتي آلت الى ورثته من بعده .

وكانت « بانسون » على علم بنشاط زوجها المزدوج ، لا تعارض فيه ولا تعرقله ، بل تعاون زوجها وتشجعه ، لانها من سلالة امراء بني عمار ، اصحاب طرابلس قبل ان ينتزعها منهم الصليبيون ويقصوهم عنها . .

وكان ريمون الثاني على خلاف مع زوجته « هوديرن » ، شقيقة الملكة

« مليزاند » ، أم الملك « بودوان الثالث » الجالس على عرش الدولة الصليبية فى بيت المقدس . فقد اتهم الكونت زوجته الكونتس بأشنع التهم ، وانقسمت الرعية الى فريقين : فريق يؤيد الرجل وفريق يؤيد المرأة . وكانت المنازعات العائلية فى ذلك الوقت قد اتسعت وتفاقمت بين أقطاب الصليبيين ، فخشى الملك بودوان الثالث على دولته من التضعضع والانهيار ، أمام هجمات خصومه المسلمين من الشمال والشرق والجنوب ، فعول على القيام برحلة الى عواصم الامراء اتباعه، وبذل مساعيه لاحلال الوئام محل الخصام ، سواء اكان ذلك فى العلاقات بين أمير وامير ، أم بين افراد الاسرة الواحدة ..

وخص الملك مدينة طرابلس بأول زياراته ، فشخص اليها مع أمه الملكة مليزاند ، على أمل أن يتمكن معها من أعادة المياه الى مجاريها ، بين خالته هوديرن وزوجها ريمون ..

أما هوديرن ، فانها لم تكن على استعداد أكثر من زوجها لتقبل الارشاد والعمل بنصائح الملك وامه ، لاعتقادها ان الحياة تحت سقف واحد من زوج غيور شرس عربيد ، ستكون سلسلة لا نهاية لها من المتاعب ، وانها سوف تختم بكارثة ، ان آجلا أو عاجلا ..

وكان هذا اعتقاد الزوج ايضا ، بالنسبة الى زوجته ، التى كان يتهمها بما تتهمه به من غيرة وشراسة وعربدة ..

ولما اتضح للملك بودوان وللملكة مليزاند أن الوفاق بعيد المنال بين الكونتس هوديرن والكونت ريمون ، قر رأيهما على عقد مهادنة بين الاثنين ، ريثما يستعيد كل منهما رشده ، ويمعن التفكير فيما يجره الخلاف عليهما وعلى أمارتهما من عواقب وخيمة . واقتنع الكونت بأن تسافر زوجته مع أختها الى بيت المقدس ، فتقيم مدة من الزمن هناك، ويبقى الملك فى طرابلس ضيفا على تابعه ، ثم يواصل رحلته شمالا ، ويستأنف الجميع البحث فى أمر العلاقات بين الزوج وزوجته بعد عودة الملك من طوافه ..

واستعدت هوديرن للرحيل مع أختها . ولكنها فى آن واحد عزمت على التخلص من زوجها بحيث يجد الملك نفسه أمام الامر الواقع ، فلا يحمل فى المستقبل مشقة السعى والوساطة !

ولهذا الغرض ، دعت الكونتس هوديرن مروض الخيول جندل بن عون ، وهو مدربها الماهر على أعمال الفروسية وضرب السيف..

وكان حديثها مع الرجل صريحا واضحا لا غموض فيه :

ـ انت عربى يا جندل . وزوجتك عربية . وهذه الامارة كانت عربية من قبل فاغتصبتها أسرتى . واذا كنت الآن واحدا ممن يخدمون زوجى الكونت ، فلأنه يدفع لك الاجر الذى تريد ، ولانك تتأمل ، مثل غيرك ، أن ترجع هذه الامارة عربية .. كما كانت ..

ـ انك تعلمين يا مولاتى ..

ـ لا تقاطعنى يا جندل . فاننى اقرأ ما يجول فى خاطرك ، وهذا لا يعنى أن أمنيتك سوف تتحقق ، وان امارة طرابلس ستنتزع منا كما انتزعناها نحن من الغير ··· ولكننى أعرض عليك أمرا فيه مصلحتك، وفيه مصلحتى ، وفيه أيضا مصلحة قومك ومصلحة قومى !·· وقد يبدو لك أن ما أقوله الآن فيه مبالغة أو تضارب ·· ولـكن ، استمع لى ، ثم احكم ··

ـ كلى سمع يا مولاتى ، وكلى نظر !

ـ ان زوجى يجعـل حيـاتى جحيما على الارض . فيجب ان اتخلص منه !

ـ كيف ؟

ـ يجب ان يقتل !

ـ ومن يقتله ؟

ـ انت ، أو على الاصح الاشخاص الذين تضع أنت السـلاح القاتل فى ايديهم !

ـ هذه جريمة !

ـ ولكنها جريمـة ستسفر عن خير عميم !.. ان للكونت الآن ابنا وحيدا لم يبلغ بعد الثانية عشرة من عمـره . فاذا مات ابوه ، آلت وصـاية الامـارة الى أمـه ، أى الى أنا ، تحت اشراف الملك بودوان ، بوصفه سـيد الامراء الصليبيين الذين بايعوه بالملك ... أفاهم انت ؟

ـ نعم يا مولاتى ..

ـ اذن ، فبموت الكونت ريمون تتحقق آمال كثيرة : ان موته يريحنى من زوج لا أحبه ولا اطيق العيش معه ، ويخلى سدة الامارة من صاحبها فيجلس عليها ابنه القاصر ، واتولى انا الوصاية عليه ، فاعقد صلحا دائما مع الامراء والسلاطين المسلمين فى هذا الشرق كله. فضـلا عن أن موت الـكونت سيجعلنى صاحبة ثروة عظيمـة ، سأعرف كيف انفقها فى سبيل هذا الشعب ، الذى يتوق الى الراحةوالسلم، لا فـرق بين مسيحى ومسـلم من أبنائه ·· وهـذه الثروة ، سـأنفحك يا جندل بجزء منها ·· بجزء يسير منها ·· الآن ·· وقبل أن تريحنى من الكونت ..

ـ يا مولاتى .. اننى مقتنع بكل ما أفضيت به الى ، ولكن ..

ـ ولكن التنفيذ محفوف بالخطر ؟ أهذا ما تعنى ؟

ـ نعم !..

ـ المال يذلل الصعاب ياجندل ! ·· واننى فى انتظارك غدا ، هنا .

في هذه الحجرة ، ومعك الجواب الشافي .. انني أتأهب للرحيـــل ، وسيخرج الكونت معي بلا شك ، ويرافقني الى أبواب المدينة ، أو الى ابعد منها ، ثم يعود الى قصره .. وفي طريق عودته .. يضرب رجالك ضربتهم ..

ـ الى الغد يا مولاتي !

***

وفي الغد ، تعهد جنــدل بن عون للكونتس هوديرن بأن ينفــذ ما طلبته منه ، فدفعت اليه بذلك الكيس الذي حمله الى زوجته..

واعد الرجل عدته لارتكاب الجريمة بحيث لا تقع عليه شبهة ، ولا تمتد اليه يد بسوء فقد كان الكونت ريمون يخص بعنايته جوادا أصيلا تلقاه هدية من الملكة ، وكان يصنع له بيده كل يوم قرصا من الحلوى ، يأكل نصفه ، ويطعم الجواد النصف الآخر . فعول جندل بن عون على أن يدس السم في ذلك القرص بحيث يقضي في آن واحد على الجواد وعلى صاحبه ، بدون أن يدرك أحد سبب الوفاة ..

وفي اليوم الذي رحلت فيه الكونتس هوديرن عن المدينة ، أعد زوجها ريمون قرص الحلوى لجواده ، وحفظه في المكان المعين له ، وخرج في صحبة زوجته وأختها الملكة ، متظاهرا أمام الناس بأن الفراق يدمي فؤاده ، وهو في الواقع يتنفس الصعداء ويبارك ذلك اليوم الذي تبتعد فيه الزوجة المكروهة عن المدينة بل عن الامارة بأسرها ..

وبقي الملك بودوان في قصر الكونت ينتظر عودة مضيفه

وعلى مسافة قصيرة من الاسوار ، ودع الكونت زوجته وأختها ، وقفل راجعا من حيث أتى ..

وراح جندل بن عون وباتسون العمارية يضربان اخماسا باسداس: ان الرجل قد مزج قرص الحلوى بسم لا يرحم .. فهل يأكل منــه الكونت ؟.. أم يلقيــه بكامله الى جواده ، فيموت الجواد ويبقى صاحبــه حيا يسعى .. ويضطر جندل بن عون الى البحث عن وسيلة اخرى ينفذ بها وعده للكونتس ، التي ترقب الاخبار وتمني النفس بالخلاص؟

وفجأة ، علا الصياح في المدينة ، وسادها هرج ومرج ، واندفع الناس في الطرقات والازقة هائجين مائجين ، يرددون كلمة واحدة :

« الاسماعيلية ! الاسماعيلية ! »

وخرج جندل وباتسون من بيتهما ، يسألان ويستفسران .. وكادا يصعقان من الدهشة !

فقد قتل الكونت ريمون الثاني وهو عائد الى طرابلس ، وقاتلوه جماعة من الفدائيين المنتمين الى طائفة الاسماعيلية وهم أشد أعداء الصليبيين عنادا ، وأبعدهم جرأة وأقواهم حيلة في التخلص من خصومهــم : وكان ريمون الثاني واحدا من أولئك الخصوم .

هاجم الفدائيون موكب الكونت عند باب المدينة الجنوبي ، ومزقوا جسمه طعنا بالخناجر والسيوف ، وحاول رفاقه الدفاع عنه فقتل الجناة اثنين منهم، ولاذوا بالفرار متسللين في الممرات الضيقة الملاصقة للاسوار ..

وكان الملك بودوان يلعب النرد مع رجال حاشيته في القصر ، فهاله مصرع الكونت ، وأمر قواد جيشه بان يتأهبوا للطوارىء ، خوفا من أن تكون الجناية مقدمة لعمل أوسع نطاقا منها

واعتدى الشعب على جماعة من العرب في داخل المدينة ، اعتقادا منه أن لهم ضلعا في الحادث ، وانهم يتآمرون على الاسرة الحاكمة ..

واسرع الرسل حاملين النبأ الى الكونتس هوديرن والملكة مليزاند ، فعادتا الى طرابلس ..

وفي اليوم التالي ، احتفل بجنازة الكونت ريمون الثاني ، ودفن في سفح الجبل ، عند باب القلعة التي شيدها منشىء الامارة الصليبية في طرابلس ، ريمون دي تولوز ..

وحدث في أثناء الجنازة ان كان أحد رجال الحرس يقود جواد الفقيد خلف نعشه ، واذا بالجواد يسقط على الارض ميتا . فقد التهم قرص الحلوى بكامله ونظر المشيعون بعضهم الى بعض مندهشين متأثرين ، وقال أحدهم :

ـ لقد مات الجواد حزنا على صاحبه !

وبكت الزوجة هوديرن على ضريح زوجها بكاء مرا . وتهامس الناس قائلين :

ـ لم تكن على وفاق معه ، ولكنها كانت تحبه !

وكان ذلك في سنة ١١٥٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٤٧ الهجرة

مرت ايام على الحادث ، فارسلت الكونتس في طلب جندل ابن عون ، وهنأته على مهارته في تدبير المؤامرة ، ودفعت اليه بكيس آخر يحوى من المال بقدر ما كان يحوى الكيس الاول . فاخذ جندل الهبة ، ولم يفه بكلمة .

وقالت هوديرن :

ـ كانت المؤامرة محبوكة ببراعة لا مثيل لها ، يا جندل. فلك مني ما تريد لانك أرحتني من زوجي ، وحققت أمنيتي بأن أتولى الوصاية على هذه الامارة ، وأجعل السلام يرفرف عليها . فماذا تطلب . قل !..

فاطرق العربي لحظة ثم قال :

ـ اطلب منك الاذن يا مولاتي بالرحيل عن هذه المدينة، والعودة الى أهلي وعشيرتي في بلاد الرها ..

ـ اذهب بسلام يا جندل ، وكن كتوما فى الغد ، كمـــا كنت كتوما الى الآن !

ورحل الرجل مع زوجتـه ، ومعهما من المال ما يكفيهما ويكفى أبناءهما وأحفادهما من بعدهما ٠

وفى الطريق ، قال جندل بن عون ليانسون العمارية :

ـ لست أدرى يا حبيبتى العزيزة اذا كان هذا الذى حدث لنا من فعل الله أم من فعل ابليس . فقد عوقبنـا على اقتراف جريمـة لم نقترفها ٠ ولكننا أنقذنا ثن الدم وغيرنا قتل ٠ فليس فى عنقنا اذن غير دم الحصـان الذى أكل القرص المسموم ٠ والـكونتس تعتقـد أننى أنقذتهـا من زوجها ، ورفعتهـا الى سدة الامارة ٠٠ وقد أحسـنا صنعا بالابتعاد عن هذه المدينة ، فلو بقينا لأصبحت حياتنا فى خطر ، ولحاولت الـكونتس التخلص منـا كمـا تخلصت من زوجها ، لاننـا نعرف سرها الرهيب !

فضحكت يانسون وقالت :

ـ انت يا جندل القاتل الذى لم يقتل ، والفائز بجائزة سباق لم يشترك فيه ، وصاحب الفضل الذى لم يتفضل على أحد بشىء !

عقد الملكة

أبى الأمير الهمام أن يناذل جيشاً ليس
له قائد ، ويحارب ملكة مات زوجها !



وضعت الملكة العقد في عنقها
وأعطت الفارس منديلها هدية للأمير الشهم الذى أوفده

فى أواخر عام ١١٦١ للميلاد ــ الموافق لعام٥٥٦ للهجرة، اشتدت وطأة المرض على بودوان الثالث ملك أورشليم ، وهو يقـوم برحلة فى أطراف مملكته والامارات الصليبية التابعة لهـا ، فقرر العـــودة الى عاصمته ، وشد الرحال مع حاشيته وحرسه ولاســيما نحو الجنــوب فى الطريق المحاذية لساحل البحر ، فى سفوح لبنان . فلما وصل الى طرابلس اســتراح أياما ، وهـكذا فعل فى بيروت حيث خارت قواه وأصبح عاجزا عن متابعة السفر ، ففاضت روحه فى العاشر من شهر فبراير ــ شباط ــ عام ١١٦٢ ، ونقل جثمانه الى بيت المقدس حيث أودع مقره الأخير وهو فى السابعة والعشرين من العمر

وشاع فى ذلك الوقت أن طبيبا عربيا دس له السم فى دواء وصفه له . ولكن ثبت فيما بعد أن الشائعة كاذبة ، وأن الطبيب العربى برىء من التهمة التى ألصقت به .

وقد حزن الشعب على مليكه وبكـاه بدموع حارة ، وقلقت الخواطر واضطربت النفوس بسبب ما كان يخشى أن يقع بين زعمـــاء الصليبيين بعد وفاته ، على من يخلفه . وبسبب الغارات المتواصلة التى كان الملوك والامراء المسلمون يشنونهـا على تخوم مملـكة أورشليم وحصونها وملحقاتها ، والتى كان ينظمها ويدير دفتها فى ذلك الحين «نور الدين» صاحب حلب ، وعم صلاح الدين الأيوبى ، الذى أعدته الاقدار لانشاء أعظم سلطنة عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية، ولازالة مملكة أورشليم من الوجود .

بلغ خبر وفاة الملك بودوان مسامع الامراء المسلمين ، وهم يعدون العدة لغارات جديدة، فعقدوا مجلسا للمداولة فيما بينهم، وقالوا لنور الدين: « اننا نستعد لمهاجمة ميناء عســـقلان التى هى من المملـــكة الصليبية بمثابة الرئة من الجسد . فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة ، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانى الاخرى ونحو بيت المقـدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين ، وقبل أن يصحوا من ذهولهم ، فلنضربهم ضربة قاضية وهم فى هــذه الحالة من التضعضع والضعف . ان حزنهم وحدادهم حليفان لنا فى هذه الحرب ! »

لكن نور الدين لم يشاطرهم الرأى ، بل أطرق لحظة ، رفع بعدها رأسه وقال : « لن أهاجم الصليبيين وهم على هذه الحالة المؤلمة، بل سأسلك معهم مسلكا تسير بحديثه الركبان ، ويتغنى به شعراؤهم فى مختلف البلدان ! »

وعادت الذاكرة بنور الدين الى بضع سنوات خلت .. فتذكر أولا عام ١١٤٤ للميلاد ، الموافق لعام ٥٣٨ للهجرة حيث حمل اليه الرسل خبر اعتلاء بودوان الثالث عرش المملكة الصليبية وهو في الثالثة عشرة من العمر ، فشعر صاحب حلب بشيء من الغضاضة والمرارة ، لاضطراره الى منازلة خصم لم يبلغ بعد سن الرجولة ، بل سن الفتوة ، وهو الذي يتوق الى مقارعة الابطال الذين عركتهم الحروب والفت زنودهم السيوف والرماح !

وتذكر عام ١١٥٣ للميلاد ، الموافق لعام ٥٤٨ للهجرة حيث هاجم الملك الشاب بودوان الثالث مدينة عسقلان وانتزعها من حاميتها المصرية ، فلم يستطع نور الدين استرجاعها منه ، فانقلب على دمشق واخذها من صاحبها الذي خانه وحالف الصليبيين .

وتذكر عام ١١٥٨ للميلاد ، الموافق لعام ٥٥٣ للهجرة حيث تزوج الملك بودوان الأميرة البيزنطية تيودورا ، وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، واستعان بامبراطور بيزنطة مانويل كومنين على محاربة المسلمين ، فخدع نور الدين أعداءه وجعلهم يسحبون جيوشهم من اراضيه ، مقابل اطلاق الأسرى المسيحيين من قلاعه وحصونه ، فأمن شر تلك المحالفة الخطرة .

وتذكر عام ١١٦٠ للميلاد ، الموافق لعام ٥٥٥ للهجرة حيث وقعت كتيبة من البيزنطيين في كمين أعده لها رجاله ، فقتلوا من جنود الامبراطور ثلاثة عشر رجلا ، واستولوا على ما كانوا يحملونه من هدايا لبودوان وزوجته ، وبينها عقد ثمين مؤلف من ثلاث عشرة حبة من اللؤلؤ ، أعده الامبراطور لكي تزين به تيودورا عنقها في الحفلات الرسمية !

وتذكر أن العقد لا يزال في حوزته ، وأن الملكة زوجة بودوان ـ وهو الذي تبكيه النصرانية في الشرق ـ قد حزنت على ضياع العقد ، وانتحبت واوفدت الى نور الدين الرسل من افرنج وعرب وبيزنطيين ، تطلب اعادة العقد اليها مقابل ما يطلبه الأمير من مال ، فرفض اجابة طلبها ، وأعاد اليها الرسل خائبين !

تذكر نور الدين ذلك كله ، وعول على القيام بعمل يثير به دهشة الصليبيين واعجابهم ، ويدخل الى قلب الملكة الكسير بعض العزاء !

❋ ❋ ❋

قال صاحب حلب لرفاقه من أمراء وقواد وفرسان : « ان مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق ، عمل لا يليق بي وبكم ، بل يلحق بنا جميعا وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة . فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخنا بالجراح ! ان أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم ، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون

عليه ، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ، ونخرجهم من أرض نعدها ملكا لنا ، ونرفع عليها أعلامنا . أما اليوم، فانني سأبعث اليهم بوفد من أبطالنا ، لا للتحدى ، ولكن للتعزية ! »

وفى اليوم التالى لدفن الملك بودوان الثالث فىاورشليم الحزينة الكئيبة ، وصل امام الاسوار ثلاثة عشر فارسا من رجال نور الدين ، وطلبوا السماح لهم بالدخول الى المدينة لمقابلة الملكة . ولما مثلوا بين يديها ، أحنوا رءوسهم اجلالا وتكلم كبيرهم فقال : « أيتها الملكة .. ان مولاى نور الدين صاحب حلب ودمشق ، وقائد جيوش المسلمين فى الصراع القائم الآن بيننا وبين قومك ، يتقدم اليك والى أسرة الملك الراحل بأخلص شعور العزاء ، ويحييك تحية الاكرام والاجلال ، ويعيد اليك ، فى هذه المناسبة ، العقد الذى لم يحسن رجالك الاحتفاظ به وايصاله اليك ، فهو لك . خذيه هدية من نور الدين ، الذى يتعهد بألا يشرع فى وجوه الصليبيين سلاحا ، ولا يهاجم لهم قلاعا ، ولا يعترض قوافلهم ورسلهم فى السهول والجبال ، ما دامت مملكة أورشليم بلا ملك ، وما دامت جيوشها بلا قائد ! »

فأخذت الملكة تيودورا — وكانت قد بلغت فى ذلك اليوم السابعة عشرة من العمر — العقد من يد الرسول ، وطبعت على حباته الثلاث عشرة ، ثلاث عشرة قبلة ، ثم وضعته فى عنقها ، وتناولت من كمها منديلا من الحرير ، مسحت به دمعتين نفرتا من عينيها ، وقبلته مرة ثانية ، فثالثة ، وقدمته لرسول نور الدين قائلة :

— هذا المنديل هدية منى ، وتذكار شكر ووفاء للأمير الشهم الكريم ، والقائد المحنك الشجاع ، الذى أفرغ فى صدره النبل ، وتجسمت فيه المروءة .. حرسه الله من عاديات الزمان ، ورد عنه غوائل الحدثان !

سر الأميرة المختفية

هل قتلت « ايدا » في المعركة ؟ أم وقعت أسيرة فتزوجهـا آسرها وظل يجهل حقيقة أمرهـا ؟

غليوم التاسع أمير أكيتانيا شاب قوى العضلات بهي الطلعة دفعه حبه للمخاطرات الى اللحاق بالجيوش الصليبية الاولى، التى تدفقت من الغرب لانقاذ قبر المسيح من أيدى المسلمين ·

وغليوم يبسط سلطانه على مقاطعات اكيتانيا وجسكونيا وتولوز · وهو بعيد الشهرة في وطنه فرنسا ، يخشاه الأمراء الآخرون ويحسب له الفرسان في الميادين كل حساب ، ولم يكن غليوم متدينا ، بل كان يهزأ بتعاليم الدين ، واذا كان قد انضم الى الجيوش الصليبية على رأس كتائبه الكثيرة ، فذلك لكي ينتقل من الغرب الى الشرق ، وينازل فرسان العرب في حومة الوغى ، ويطلق لجواده العنان في جو لم يألفه من قبل ، ولكي ينظم الشعر أيضا ، لأن غليوم التاسع كان شاعرا ، وقد دون اسمه في تاريخ الادب الفرنسي بين فحول الشعراء وأرقهم احساسا وأبعدهم خيالا ·

ذلك الامير الشاب كان بين الأمراء والاقيال الغربيين أشدهم اندفاعا في حمل النساء المسيحيات في أوربا على الالتحاق بالكتائب الصليبية ، وتجشم المخاطر والمصاعب لزيارة الارض المقدسة ، اعتقادا منه بأن وجود الجنس اللطيف في صفوف الجنود لابد أن يبعث في صدورهم الشجاعة ، ويضرم فيهم نيران الحماسة وحب التضحية ·

وبين النساء اللواتي حملهن غليوم التاسع على اللحاق به الى بلاد الشرق ، أميرة نمسوية تدعى «ايدا» كان فرسان أسرتها جميعهم قد انضموا الى الجيوش الصليبية · فلحقت بهم اجابة لالحاح الامير غليوم التاسع عليها ، وشاءت الأقدار أن تنتهي حياة تلك الاميرة النصرانية في بلاد المسلمين بسر من الاسرار التي لاتزال الى الآن غامضة ، ولم يتمكن المؤرخون من تمزيق الحجاب عنها ·

ففي سنة ١٠٩٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩٢ للهجرة بدأت المعارك في الشرق بين المسلمين والصليبيين · وكان غليوم التاسع يأخذ نصيبه من القتال في تلك الحملة الصليبية الاولى ، على رأس الكتائب التي جندها بماله الخاص ، وكان في الثامنة والعشرين من العمر ·

شاء سوء حظه أن يشترك في معركة هرقلية ، بأرض الاناضول ، حيث التحم جيش الصليبيين في قتال مرير مع قوات مدربة حشدها الامراء السلجوقيون لوقف الزحف الصليبي ، وقد انهزم الافرنج في تلك المعركة وتكبدوا خسائر فادحة ·

تمكن غليوم من الافلات وواصل السير مع البقية الباقية من كتائبه

جنوباً ، ودخل مدينة انطاكية مع القوات الصليبية ٠ وعبثا بحث عن الفتاة «ايدا» التى رافقته فى مغامرته ٠ فانه لم يجدها ، ولم يستطع أحـــد أن ينبئه بما حدث لها ٠ فحزن الامير الشاب عليها ، واعتقد أن المسكينة قد قتلت فى معركة هرقلية ، وتركت جثتها بين الجثث فى العراء ، فأمست طعاما للنسور والغربان ٠

وعاد غليوم التـاسع أمير أكيتانيا الى بلاده بعـد أن انتهت الحـرب الصليبية الاولى ، وواصل مغامراته فى الغرب ٠ وحارب ضد العرب الذين كانوا يغزون جنوب فرنسا من وقت الى آخر ، وتحالف عليهم مع الامراء الاسبانيين الذين انتزع العرب منهم اماراتهم فى الأندلس وقشطيـــلة وغيرهما ٠

ومات غليوم فى سنة ١١٢٧ ، فى السادسة والخمسين من العمر ، وظل حتى آخر نسمة من حياته يذكر الاميرة النمساوية الشابة التى غرر بها وكان سببا لهلاكها فى سهول هرقلية ٠



مرت أعوام وتبعتها أعوام

وفى سنة ١١٤٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٤١ للهجرة ، وفدت على الشرق الحملة الصليبية الثانية بقيادة كونراد الثالث امبراطور المـــانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، وضرب الصليبيون الحصـــار على دمشق ثم رفعوه وعادوا من حيث أتوا ، وقد انتهت تلك الحملة بالفشل فى سـنة ١١٤٩ م = ٥٤٣ هـ ٠

وكان يرافق الامبراطور كونراد الالمانى ابن أخيه فردريك ، أمـــير سواب ، وهو الذى أصبح فيما بعد امبراطورا لالمانيا ، خلفا لعمه ، وعرف باسم «فردريك برباروس» أى صاحب اللحية الشقراء ، وقد عاد الى الشرق على رأس الحملة الصليبية الثالثة ، مع ملك الانجليز ريكاردوس قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوغست ، ومات غرقا فى آسيا الصغرى ، قبـــل أن يصل الى الارض المقدسة ٠

وفى خلال الحملة الصليبية الثانية ، التى اشترك فيها فردريك مع عمه الامبراطور ، وكان فى منتصف العقد الثانى من العمر ، جرى حديث بينه وبين أمير سلجوقى من أسرة ارسلان ، أعاد الى الاذهان ذكرى الاميرة النمساوية «ايدا» التى اختفت فى سهول هرقلية قبل ذلك الوقت بحوالى نصف قرن ٠

فقد قال الامير السلجوقى للأمير الالمانى انه حفيد امرأة نمســاوية وقعت أسيرة فى أيدى بنى قومه ، فتزوجها جده ، ورزق منها ابنا هو والد الامير الارسلانى ٠

وعاد فردريك الى الغرب حاملا معه هذا الخبر ، فراح الناس فى النمسا يتحدثون مرة أخرى عن ايدا ، باعتبار أنها قد تكون تلك الاســيرة التى

تزوجت أميرا مسلما فى الشرق ، وانها لم تمت فى معركة هرقلية كما اعتقد رفاقها بعد الحرب الصليبية الاولى ٠

***

ومرت أعوام أخرى ٠٠

وفى سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة لسنة ٥٨٥ للهجرة ، التحق بالحملة الصليبية الثالثة أمير نمساوى من أسرة «ايدا» على أمل أن يكشف السر الذى أحاط باختفاء الفتاة فى بلاد الأناضول ، وكان الشاب فى معية الامبراطور فردريك بربارس !

والتقى الشاب النمساوى بالامير السلجوقى ، وكان قد أحرز شهرة كبيرة وتولى الحكم خلفا لابيه ، وعرف باسم قليج أرسلان الثانى ٠ فأكد له الرجل مرة أخرى ما رواه لفردريك قبل ذلك الوقت ، ودفع اليه قطعة من الحرير المزركش وخنجرا مرصعا بالجواهر ، وقال له :

ـ ان هذا الخنجر كانت تحمله الاميرة النمساوية التى وقعت فى أسر المسلمين وتزوجها جدى ، وهذه قطعة من ثوبها ٠

وأضاف قليج أرسلان قائلا :

ـ لايعرف أحد منا اسمها ٠ فقد كتمته ، ورفضت أن تبوح به ، حتى لزوجها ٠ وكانت تكتفى بالقول بأنها نمساوية جاءت الى الشرق مع أمير فرنسى ، لتزور قبر المسيح فى بيت المقدس ، وقد زارته فيما بعد ، يوم سمح لها جدى بأن تفعل ٠

وأخذ الشاب النمساوى معه الأثرين الباقيين من الفتاة المجهولة ، وعاد بهما الى بلاده ٠ ولكن أفراد الاسرة لم يجدوا فيها ما يثبت أنهما كانا للاميرة « ايدا » المختفية ٠

وظل مصير النمساوية الحسناء موضع شك وتخمين ، وأمرها معلقا بين النفى والاثبات ٠

وكان الامير غليوم التاسع ، الذى تسبب فى موت ايدا فى معركة هرقلية ـ أو بوقوعها أسيرة كما اعتقد بعضهم ـ قد خلد اسمها فى قصيدة رثى فيها الحسناء التى رافقته ، والتى عاد الى بلاده بدونها ٠

في حصن المرقب

أحسن اليها ، فحفظت له الجميل . ولكن قومها
أهانوه وعذبوه، فدفنته في الحصن الذى تقيم فيه .

كانت تلك الليلة ليلة عيد فى قلعة «المرقب» حيث اجتمع الاشراف والفرسان حول زعيمهم قائد ذلك الموقع الحربى المنيع · وتلألأت فى القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتساماتهن الخلابة · وارتفعت فى أرجاء المكان أنغام الموسيقى الوترية والاناشيد الدينية والقومية ·

كان القوم يحتفلون بعيد الميلاد ، وذلك فى سنة ١١٧٢ مسيحية ، الموافقة لسنة ٥٦٦ للهجرة ، وقد عقدوا مع جيرانهم هدنة ، تعهد الفريقان بالامتناع عن الحروب والغزوات فى خلالها ·

كان الصليبيون والمسلمون يلجأون الى مثل ذلك فى المواسم والاعيا فلا تنطلق السيوف من أغمادها ، الا بعد انقضاء المدة المتفق عليها ·

أما قلعة « المرقب » التى كان يقام فيها الاحتفال ، فقد بناها العرب فى سنة٤٥٥ للهجرة الموافقة لسنة١٠٦٣للميلاد ، فى بلاد «الاسماعيلية» أو «الحشاشين» كما كانوا يسمونهم ، على قمة جبل يشرف عـلى البحر · وكان فى استطاعة من يقيم فى تلك القلعة أن «يراقب» الطريق المؤدية من طرابلس الى انطاكية ، والطرق المتشعبة منها الى المناطق الجبلية الداخلية · ويعرفها الافرنج باسم قلعة «ماركا» أما العرب فقد اطلقوا على ذلك الحصن اسم «قلعة المرقب» ·

وانتزع ذلك الموقع المنيع من العرب ، القائد الصليبى روجيه أمـير انطاكية ، فى سنة ١١١٧ للميلاد الموافقة لسنة ٥١٠ للهجرة ، وانتقلت القلعة فيما بعد الى «فرسان الهيكل» الذين تعهدوا بالاحتفاظ بها، والسهر فيها على سلامة المواصـلات ، بين حصون الافرنج وقلاعهم على سـواحل سورية ولبنان ·

***

وفى تلك الليلة التى كان الفرح فيها شاملا ، وصل الى أسوار الحصن الخارجية فارس عربى ، طلب من الحراس أن ينزلوا المعبر على الخنادق المملوءة بالماء ، لكى يدخل الحصن ويقابل قائده ، مادامت الهـــدنة قد أعلنت ، وما دامت الايام أيام عيد ، لاحرب فيها ولا قتال ، ولا غـدر ولا خيانة ··

وترجل الفارس ودخل القلعة · وما وقع نظر الحراس عليه حتى عرفوه ، لانه كثيرا ماكان يتردد على قائد الموقع ·

وعندما بلغ خبر وصوله مسامع المجتمعين في قاعة الحصن الكبرى، لم يظهروا شيئا من الامتعاض ، بل وافقوا على أن يشاركهم الضيف الغريب في فرحهم ولهوهم ، وأوفدوا اليه رسولا يدعوه للدخول ٠

لكن الفارس لم يدخل ، بل أفضى الى الرسول برغبته في أن يرى الفتاة «بلانش» ربيبة سيد الحصن ، لانه سائر الى ميادين القتال ، ويود أن يودعها ويودع حماة الموقع في شخصها ٠

ولم يمانع أحد من الجالسين في قاعة الحصن في خروج الفتاة للقاء الفارس العربي ، لانهم كانوا جميعا على بينة من أمرها ، يعلمون أن الفارس أنقذ حياتها في احدى الغزوات ، وانها تحمل له في صدرها عاطفة محبة قوية ممزوجة بالاحترام وعرفان الجميل ٠

* * *

هرولت بلانش الى صحن القلعة ، حيث كان الفارس العربي ينتظرها ملتحفا بردائه الأبيض ، تحت البرج الشاهق القائم في وسط المكان ٠

وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعي ذلك الغريب ، قائلة بصوت يبدو فيه القلق والاضطراب :

ـ علاء الدين ! علاء الدين ! ماذا أسمع ؟ أعائد أنت الى الميادين حقا كما أنبئت منذ لحظة ؟ ألا يعيد اذن سلطانكم الشجاع السيوف الى الاغماد والراحة الى النفوس ؟ أكتب لكم أن تقضوا حياتكم كلها في كروفر وهجوم ودفاع ، تتقاذفكم الأقدار من نصر الى هزيمة ومن هزيمة الى نصر ؟ أما لهذه الحالة من آخر ياعلاء الدين ؟

فضم الشاب العربي الفتاة الى صدره ، وداعب جدائلها المسترسلة ، وقال بصوت لايقل اضطرابا عن صوتها :

ـ هكذا شاءت الاقدار يابلانش ، بل هكذا شاءت الامم الافرنجيـــة التي تنتمين اليها ، والتي دفعت جحافل الصليبيين الى هذا الشرق ٠ انني أقوم بواجبي كعربي ومسلم في صفوف العرب والمسلمين ، كمـــا يقوم أصدقاؤك وبنو قومك بواجبهم كافرنج ونصارى ، في صفوف الصليبيين٠ أتريدينني حانثا بالعهود ، جاحدا لسادتي ، محجما عن تلبية نداء الدين ـ ديني أنا يا بلانش ؟

ـ كلا ياصديقي ٠ لااريدك هكذا ، بل أريدك دائما أبدا حافظا للعهود، طائعا لسادتك ، أول الملبين للنداء ٠ لقد أنقذت حياتي ياعلاء الدين من موت محقق ٠ وكنت في ذلك اليوم العصيب مثال النبل والشرف والمروءة وانني أحفظ لك الجميل على حسن صنيعك ، كما أن قومي يقرون لك بذلك الصنيع الحسن ٠ فأنت هنا دائما بين أصدقاء أوفياء ، سواء أكنا في أيام حرب أم في أيام سلم ٠ ولكنني أرغب اليك في شيء واحد وهو الا تطيل غيبتك عني ، وان تزور هـذا الحصن مرة و مرتين في السنة ! هـذا كل ماأطلبه منك ٠ وأعدك بأنني سأفكر فيك ليلا ونهارا ، وأرفع صلواتي الى

الله عز وجل – الى الله الذى يعبده قومى كما يعبده قومك ياعلاء الدين – بأن يدفع عنك الأذى ، ويحفظ حياتك ، ويجعلك سعيدا ٠٠ سعيدا كما أريد أنا أن تكون ٠٠ سعيدا على الخصوص فى الحب ياعلاء الدين ٠

– وهذا ما أرجوه لك ياصديقتى ٠

– حقق الله رجاءنا ؟ وسأطلب من الله أيضا فى هـذه الليلة التى نحتفل فيها بميلاد السيد المسيح ألا يسمح بموت أحدنا بعيـــدا عن الآخر ٠

– وسأطلب منه أيضا أن لايغمض عينى للمرة الاخيرة الا بالقرب منك يابلانش ٠ الوداع ٠

– بل الى اللقاء يامنقذى من الموت ٠ الى اللقاء القريب ! كن شجاعا ، ولكن لاتجازف بنفسك ولا تقتحم المخاطر طائشا ٠

– الى اللقاء ٠

* * *

رحل علاء الدين السنجارى عن حصن المرقب فى ذلك الليل الذى أراد الله أن تكون السماء فيه صافية الأديم مرصعة بالنجوم٠ وغاب الفارس العربى الكريم عن الأنظار متغلغلا فى الظلام ، والفتاة مطلة من أعلى البرج الشاهق ، ناشرة خمارها الأبيض ، مشيرة به لتحية الصديق المسافر ، على حين كانت الرياح تداعبها بلفحاتها الباردة ٠

وأجهشت الفتاة فجأة بالبكاء ، فأفلت الخمار الابيض من يدهـا ، وحملته الرياح على أجنحتها ، ودفعت به الى حيث تمتد الطريق الوعرة ، من أسوار الحصن الى أسفل الجبل ٠

ونظرت بلانش الى الخمار فى طيرانه ، وما هى الا دقيقة واحدة ، حتى سمعت الفتاة صوتا بعيدا عرفته من نبراته ، يصيح فرحا :

– ســـأحمله فى صدرى ، وســيكون لى درعا يرد عنى الأذى ! الى اللقاء !٠

* * *

فى يوم من أيام الشتاء سنة ١١٩٢ للميلاد ، الموافقـة لسنة ٥٨٨ هجرية ، وصل مدينة طرطوس ، فى رابعة النهار ، شيخ هرم ، يجرنفسه جرا وعلى ظهره كيس مهلهل يحمل فيه قوته ، وفى وجهه أثر جرح بليغ وشعوره البيضاء تجلل رأسه وتتساقط على كتفيه ٠

كانت المدينة فى ذلك اليوم فى فرح ، لان الكنيسة التى شيدهـــا الصليبيون ، وهدمها السلطان صلاح الدين يوسف فى غزوة سنة ١١٨٨ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٨٤ للهجرة ، قد أعيد ترميمها واصلاحها بعد أن عقد الصلح بين السلطان وريكاردوس قلب الأسد ملك الانجليز وكان الناس فى ذلك اليوم يقيمون الزينات استعدادا للاحتفال بعيد الميلاد ٠

مر الشيخ الغريب فى المدينة قاصدا الى الكنيسة الكبيرة ، فالتقى فى ساحتها بكاهن جليل من كهنة الصليبيين فسأله قائلا :

ـ أفي استطاعتك أن تعطيني أخبارا عن حصن المرقب ومن يقيم فيه الآن ؟ ..

ـ نعم ياأخي .. في استطاعتي أن أفعل ذلك اذا كان الامر يهمك.. أقاصد أنت الى ذلك الموقع المنيع ؟

ـ نعم .. انني أسير اليه على قدمي ، منذ أسابيع .

ـ ان الحصن لايزال كما كان منذ عشرات السنين، في حوزة فرسان الهيكل .

ـ والفتاة بلانش ؟ أتعرف عنها شيئا .

ـ الفتاة بلانش ؟ لقد زرت القلعة في العام الماضي ، ولكنني ماعرفت فيها فتاة بهذا الاسم . غير أن في الحصن اليوم سيدة تدعى «بلانش» هي زوجة الكونت هكتور ، الذي بلغت مسامعك بلا شك أنباء انتصاراته الباهرة ووقائعه الرائعة أن زوجته تدعى بلانش، نعم وابنته الصبية تدعى كلوتيلدة .

ـ آه .. شكرا لله .. أستودعك الله .

ـ بسلامة الله ياأخي .

***

وكانت تلك الليلة أيضا ليلة عيد في قلعة المرقب ، حيث اجتمع الاشراف والفرسان في سنة ١١٩٢ كما كانوا مجتمعين في سنة ١١٧٢ فتلألأت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتسامتهن الخلابة وارتفعت في أرجاء المكان أنغام الموسيقى الوترية والاناشيد الدينية والقومية .

وكان القوم يحتفلون ـ في تلك الليلة أيضا ـ بعيد الميلاد المجيد .

وفي سكون الليل ، ارتفع وراء الاسوار صوت يطلب من الحراس الاذن بالدخول .

من يكون ذلك الشيخ المتهدم ؟ انه بلا شك درويش حط عليه الزمن أو متسول متشرد ، أو حاج نذر لله السير على قدميه الى بيت المقدس .

أنزل الحراس المعبر فدخل ، وجلس في ناحية من السلك قائلا للجند انه يرغب في رؤية السيدة زوجة الكونت هكتور . فامتعض ا.. ولكنهم حملوا الخبر الى السيدة ، لان التقاليد تقضي بألا يرفض لاحد طلب في أيام الأعياد .

خرجت بلانش الى ساحة الحصن ، واتجهت الى الركن الذي جلس فيه الغريب ينتظر . فاذا بها أمام رجل لاتعرفه .

ـ بلانش !

انبعثت هذه الكلمة من فم الغريب الشيخ ، فانتفضت المرأة لسماعها هذا الاسم ينطلق فجأة من بين شفتين مرتجفتين ، وقالت بدهشة ممزوجة بشيء من الغضب :

ـ من أنت ؟

ـ أنا ...

سكت الرجل وعض على شفتيه . ثم وضع يده في صدره ، وتناول منه شيئا نشره أمامه . فاذا بالمرأة ترى خمارا أبيض ، ناصع البياض .. يخفق مضطربا وقد لعبت به خطرات النسيم .

ـ علاء الدين .

ـ نعم علاء الدين يابلانش !

ـ أنت ؟ على هذه الحالة هنا ؟ .. انهض.انهض من مكانك وقص على قصتك ..

ـ لا .. لاأستطيع النهوض ، فقد خارت قواى . وما جئت الى هنا الا لكي أقضي نحبي في هذا الركن المنعزل من أركان حصنك يا بلانش .

ـ هكتور .. هكتور ..

دوى صوت السيدة في أرجاء القلعـــة ، فأسرع الكونت هكتور ، زوجها ، تصحبه ابنته ، وهي في الخامسة عشرة من العمر .

ـ هكتور . لقد أفضيت اليك غير مرة ياحبيبي العزيز بما حدث لي من زمن بعيد ، يوم أحدق بي الخطر من كل صوب ، فأنقـذني فارس عربي شهم نبيل .

ـ علاء الدين ؟

ـ انظر : انك ترى منقذي أمامك .

ـ هذا الشيخ الهرم ؟

فرفع علاء الدين رأسه ، وقال بصوت عادت اليه نبرات الشباب :

ـ ان هذا الشيخ الهرم أيها المولى ، لم يبلغ بعد الخمسين من العمر لكن الويلات والمصائب التي حلت به ، والعذاب الذي قاســاه ، والضرب المبرح الذي تحمله بصبر وأناة ، كل ذلك جعله يشيخ قبل الاوان .

كانت بلانش قد جلست على الارض بجانب منقذها ، وأرهفت أذنيها تستمع اليه ، فقال :

ـ وقعت أسيرا في حروب عسقلان منذ عشرين سنة . فقـــادني الصليبيون الى قلاعهم وحصونهم ، ثم أرسلوني مع من أرسل من بني قومي الى بلادهم .. نعم الى بلادكم أيها المولى ، حيث طافوا بنا كمـــا يطوف

المروضون بوحوشهم ، لكي يتفرج علينا الناس في المدن والقرى والحقول ·

ـ ماذا تقول ياعلاء الدين ؟

ـ الحقيقة · وقد فررت من الأسر، وهمت على وجهي في بلاد لاأعرف لغة أهلها · فسرت من قطر الى قطر ، متنكرا ، باسطا يدي للتســـول ، أتحمل العذاب وشظف العيش ، وليس لي غير واحـــــدة ، وهي ان ارى بلادي قبل أن ألفظ أنفاسي الاخيرة ، وان اموت في هذا الحصن يا بلانش ! وها قد رأيت بلادي ، ورأيت قومي فرحين مهللين ، بعـــد أن استرجع السلطان صلاح الدين الايوبي بيت المقدس وهدم العرش الذى أقامه فيه الافرنج الذين تنتمين اليهم يا بلانش فلا تحملي موجدة علي اذا ماشاركتهم الفرح والتهليل ·

ـ لاأحمل موجدة عليك ياعلاء الدين ، لانني أفهم معنى المشاعر التي تختلج في صدرك أيها البطل الشجاع ·

ـ البطل الشجاع الآن تحول الى شيخ متهدم جاء ليموت هنا ·· في هذا المكان ·· بالقرب من الصديقة الوفية ·

ـ ستعيش ياعلاء الدين · ستعيش وسننسيك نحن هنا ما ألحقه بك بنو قومنا هناك من ضرر ·

ـ ماجئت لكي أعيش بل لكي أموت · وقد حقق الله رجاءنا يابلانش أما طلبنا منه هنا ، منذ عشرين سنة ، ألا يسمح بموت أحدنا بعيدا عن الآخر ؟ وقد أراد الله أن تغمض عيني بيديك · انني أشعر بالحياة تنسـل من جسمي انسلالا ، فأقول لك اليوم يابلانش : الوداع ! الوداع الاخير ! ان هذه الليلة ليلة عيد عندكم ياكونت · فأرجو ألا تعكروا على أنفسكم صفو هذه الأفراح · انكم تحترمون ارادة الميت الاخيرة · وارادتي الاخيرة هي أن تدفنوني في سفح هذا الجبل ، بين تلك الصخور الشاهقة ، و يكون ذلك على أنغام الموسيقى ، وعلى لحن أنشودة العيد ، التي كانت بلانش الفتاة تغنيها منذ عشرين سنة ، والتي أرغب الى بلانش الزوجة والام أن تغنيها الليلة أيضا ·

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١١٩٢ ، دفن علاء الدين السنجاري في سفح الجبل ، على طريق قلعة المرقب ، على أنغام انشودة العيد · وأبت صديقته بلانش ، التي انقذها من الموت فكان نصيبه الأسر والتعذيب والتشريد ، الا أن تقيم على قبره شاهداً حفرت عليه هذه الكلمات باللغة العربية : «في ذمة الله · انا لله وانا اليه راجعون !» ·

حب بلا أمل

مات حبيبها الغربي ، ومات حبيبها العربي ، فلم
يبق لها الا أن تدفن نفسها حية وتبكي الحبيبين



الملك لويس التاسع في الاسر

في القرن الثالث عشر للميلاد ـ والسابع للهجرة ـ اتخـذ الصراع الصليبي الاسلامي في الشرق شكلا غير منتظر · وعمد كل من الفريقين المتصارعين الى اساليب لم تكن مألوفة بينهما من قبل · وبدت رغبة كـل منهما في احلال التفاوض والتفاهم محل التنافر والاقتتـال · او بعبارة أخرى ، احلال « الدبلوماسية » قبل أن توجد هذه الكلمة ، محل «الحرب» بحيث يوضع حد لاهراق الدماء ، في سبيل امتـلاك الأراضي المقدسـة في سورية الجنوبية ، وهي المعروفة باسم « فلسطين» بعد ان كانت قد تحولت ، منذ قدوم الحملة الصليبية الاولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلاد ، والخامس للهجرة ، الى مسرح لمجازر رهيبة .

في سنة ١٢٢٨ للميلاد ، المرافقة لسنة ٦٢٥ للهجرة ، وفدت على الشرق الادنى الحملة الصليبية السـادسـة ، بقيـادة امبراطور ألمانيا ، الملقب بامبراطور الغرب ، فردريك الثـاني · وكان ذلك العاهل الجريء صاحب الدعوة الى مفاوضة الملوك والامراء المسلمين في الشرق ، وعقد معاهدات صلح معهم ، تنهي الحروب الصليبية وتقرر مصير الاراضي المقدسة ، بأعادتها جميعهـا الى أولئك الملوك والامراء ، على أن تترك للنصارى في الشرق والغرب على السـواء ، حرية زيارتها للحج والتبرك ، أو الاقامة فيها آمنين مطمئنين ·

ولم تكن السلطات الدينية المسيحية في الغـرب تقر الامبراطور الألماني على رأيه ذاك ، بل تلح عليه ، وهو أقوى الملوك الغربيين وأوسعهم سلطانا ، بأن يعمد الى الحـرب كما فعل غيره من قبل ، في الحمـلات الصليبية الخمس السابقة ، لانتزاع الاراضي المقدسة بالقوة ، واعادة مملكة أورشليم الى سابق عهدها ، بعـد أن دمرها صلاح الدين الايوبي في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، الموافق للقرن السـادس للهجرة .

نزل الامبراطور على رغبة البـابا غريغوريوس التاسع ، الجالس على عرش القديس بطرس بمدينة روما في ذلك الوقت ، واعد الحملة الصليبية التي عرفت بالسادسة ، ومشى هو على رأسها ، ولكنه ظل على رأيه ، وتعمد ان تكون الحملة في هذه المرة للمصـالحة لا للقتال .

وما كاد فردريك الثـاني يصل الى الشرق ، حتى أوفـد رسله الى الملك الكامل نصر الدين الايوبي ، سلطان الديار المصرية والشـامية ، لمفاوضته في الصلح .

وعقدت بين العاهلين معاهدة وجـد الطرفان فيها ما يرضيهمـا

ويحقق أهدافهما . فقد تنازل السلطان للامبراطور ، بموجب تلك المعاهدة ، ولمدة عشرة اعوام ، عن المدن الثلاث التى لها فى نفوس المسيحيين مكانة خاصة ، وهى بيت لحم حيث ولد المسيح بن مريم، والناصرة حيث نشأ ، واورشليم او بيت المقدس ، حيث بشر وتعذب ودفن وبعث حيا ..!

ونصت المعاهدة على ان يتخلى ملوك النصارى وامراؤهم عن هذه المدن للمسلمين ، بعد انقضاء الاعوام العشرة ، على ان يعودوا للمطالبة بها مرة اخرى ، والا يحاولوا الاستيلاء عليها سلما أو حربا .

وثارت ثائرة العالم المسيحى فى الغرب على الامبراطور الالمانى ، وحامت حوله الشكوك ، واتهمه البابا غريغوريوس التاسع بانه تواطأ مع السلطان لأنه اعتنق الاسلام خفية ! وظل بعض المؤرخين يعتقدون، منذ ذلك الوقت ، ان فردريك الثانى لم يمت مسيحيا ، بل مسلما !

***

ولما انقضت الاعوام العشرة التى حددتها المعاهدة بين فردريك والملك الكامل ، عاد المسلمون فبسطوا سلطانهم على مملكة أورشليم بكاملها ، بما فيها المدن الثلاث ، بيت المقدس ، والناصرة ، وبيت لحم..

وكان غريغوريوس التاسع لا يزال على رأس الكنيسة المسيحية فى روما . اما فى مصر وسورية ، فكان الملك العادل سيف الدين ابوبكر قد تولى الحكم ، ثم خلفه فى سنة ١٢٤٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٣٧ للهجرة ، اخوه الملك الصالح نجم الدين ايوب .

وكتب البابا الى نجم الدين يطلب منه تأمين النصارى على املاكهم وأرواحهم ، فرد عليه السلطان بكتاب حمله رسول خاص ، وجاء فيه ما يلى :

« الى راس الملة العيساوية ، وقاضيها الحبر الأعظم : انه قد وصلنى كتابك . وبه تروم الصلح والسلامة والأمان على ابناء ملتك . فقبلنا سؤالك وصفحنا عنهم الصفح التام . فليكن هذا معلوما والسلام » .

***

وانقضت عشر سنوات اخرى ، وتولى عرش الكنيسة فى روما البابا « اينوشنتو الرابع » فارتفع صوته بوجوب نقض الهدنة ، واعداد حملة صليبية سابعة تزحف على الشرق للاستيلاء مرة اخرى على بيت المقدس وقبر المسيح !

وتقدم ملك فرنسا لويس التاسع لقيادة تلك الحملة ، واعد لها قوة من خيرة الاشراف والفرسان ، جميعهم من الفرنسيين المدربين على القتال .

***

خمسون الفا من رجال الحرب حشدهم لويس التاسع فى ميناء

« ايجمورت » بفرنسا ، ثم نقلتهم الف وستماية سفينة الى جزيرة قبرص . وفي سنة ١٢٤٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٤٧ للهجرة ، اقلعت الحملة الى مصر ، ووجهتها ميناء دمياط .

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب مشغولا بمحاصرة مدينة حمص بسورية ، فعهدت زوجته شجرة الدر الى القائد فخر الدين بالدفاع عن دمياط . ولكن الصليبيين تمكنوا من الاستيلاء عليها ، فسقطت في ايديهم قبل ان يصل السلطان عائدا من سورية على جناح السرعة.

واستأنف الافرنج زحفهم جنوبا . فقاتلهم المصريون وهم يرتدون في اتجاه مدينة « المنصورة » وسقط الامير فخر الدين صريعا في الميدان.

في الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هجرية ، ١٢٤٩ للميلاد، مات الملك الصالح نجم الدين أيوب في مدينة المنصورة ، وكان ابنه توران شاه غائبا في سورية ، فأرسلت أمه شجرة الدر تلح عليه بالعودة، وكتمت خبر وفاة زوجها عن الناس ، وواصلت الاشراف على اعمال الدفاع . وكان الافرنج قد وقعوا في اكثر من خطأ واحد في زحفهم . ولما دخلوا المنصورة في شهر فبراير من سنة ١٢٥٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٤٨ للهجرة ، حلت بهم الهزيمة المنكرة التي غيرت مجرى الحرب ..

هلك فريق منهم في داخل المدينة ، وقرر الملك لويس التاسع أن يتراجع بجيشه عائدا الى دمياط ، تجنبا لكارثة ماحقة . ولكن المصريين طاردوا الجيش المتقهقر ، وداهموه من جميع الجهات ، بقيادة السلطان الشاب نفسه . وفي معركة « فارسكور » أدرك لويس التاسع ان لافائدة من مواصلة القتال ، فسلم نفسه ، ووقع أسيرا مع جيشه كله . واقتاده المصريون الى المنصورة حيث سجنوه في الدار المعروفة ببيت ابن لقمان .

حدث ذلك في شهر محرم من سنة ٦٤٨ هجرية . وكان الملك لويس التاسع في الرابعة والثلاثين من العمر .

وقد افتدى الفرنسيون ملكهم بالمال . فدفعوا ثمنا لحريته ثمانمائة الف قطعة من الذهب ، وتعهدوا بالجلاء عن دمياط ، والرحيل عن أرض مصر . وكان الملك المعظم توران شاه قد قتل بأيدي خصومه ، فتولت الملك بعده امه شجرة الدر .

***

ألقى الافرنج نظرة وداع أخيرة على الارض التي كانوا يطمعون في الاستيلاء عليها ، والتي ذاقوا فيها مرارة الهزيمة وعذاب الأسر . وابحرت مراكبهم نحو الشرق ناشرة اجنحتها البيضاء على صفحة المياه الزرقاء .

قصد الملك لويس التاسع ، الى أرض فلسطين وسواحل لبنان، على امل ان يجمع هناك شمل رجاله ، ويعد عدته لهجوم جديد يقوم به على مواقع المسلمين ...

وكانت الحصون والقلاع الصليبية منتشرة فى تلك الاقطار ، تشرف من أعالي القمم الشاهقة على السهول المنخفضة وعلى شواطىء البحر، كأنها وكور معلقة فى الفضاء ، تتحفز فيها العقبان للانقضاض ٠

طاف الملك الفرنسي فى البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واقام فى حصونه وقلاعه حاميات تقوى على مواجهة الغزوات وصدها ، وقرر أن يتخذ « قلعة البحر » فى « صيدا » مقرا له ولأسرته وحاشيته .

وقلعة البحر بناها الصليبيون فى سنتى ١٢٢٧ و ١٢٢٨ للميلاد؛ الموافقتين لسنتى ٦٢٤ و ٦٢٥ للهجرة ، فى جزيرة صغيرة بميناء صيدا اللبناني ـ أو « ساجيت » كما كان الافرنج يسمونها ، للدفاع عن تلك المدينة . وكانت الجزيرة المحصنة تتصل بالبر بجسر من الحجر طوله نحو سبعين مترا ، ولا تزال خرائبه قائمة حتى أيامنا هذه ٠

وشيدوا على اليابسة قلعة ثانية ، أطلقوا عليها اسم «قلعة البر»، وكان جيشهم يتفرق بين القلعتين فى أيام الحصار والهجوم والدفاع .

اقام الملك لويس التاسع فى « قلعة البحر » ومعه زوجته « مرغريت دي بروفانس » والكونتس « دارتوا » زوجة أخيه الذى قتل فى معركة « المنصورة » . ونزل معه فى القلعة ايضا اخواه الفونس وشارل وزوجتاهما .

فالأسرة الملكية كانت كلها مجتمعة اذن فى « قلعة البحر » عندما عزم الملك الفرنسي على اتخاذها مقرا له ، فى أثناء اقامته فى الارض المقدسة .

وكان الملك يشرف بنفسه على تحصين المدينة وتقوية اسوارها ، فجعلها فى مدة قصيرة منيعة الجانب صعبة المنال ، ولبث ينتظر الفرص السانحة لاعادة الكرة على معاقل المسلمين وعواصم ممالكهم ٠

لكنه لم يقدم على حرب جديدة واسعة النطاق ، فانقضت اربع سنوات لم تقع فيها بين المسلمين والصليبيين غير مناوشات محدودة. وفى ٢٥ من شهر ابريل سنة١٢٥٤ للميلاد ـ الموافقة لسنة ٦٥٢ للهجرة، أبحر الملك لويس عائدا الى بلاده ، مع زوجته وبقية أسرته ٠

***

كان بين وصيفات الملكة مرغريت فتاة فرنسية تخصها بعطفها تدعى «سلفى دى بوفال» جاءت مع الحملة الصليبية وظلت ملازمة لمولاتها فى مصر ولبنان ، تخدمها باخلاص ، وتسهر على راحتها ؛ وتتفانى فى محبتها ، عرفانا منها بالجميل ٠

فان الفتاة لم تجىء الى الشرق وحدها . بل كانت فى صحبة اخيها وابن عمها ..

سقط الاخ شارل دى بوفال قتيلا فى يوم المنصورة . وضاعت جثته بين الجثث ..

أما ابن العم ، واسمه أيضا مثل الاخ « شارل دى بوفال » فقد جرح في معركة نارسيكور ، وكان بين الاسرى الذين افتداهم الافرنج مع الملك الاسير . فعاد الى دمياط . ولكن جرحه انتقض عليه . وعجزت عناية سيلفي به عن شفائه منه - فلحق بابن عمه ، ودفن فى دمياط قبيل رحيل الافرنج عنها .

ولما صعدت الفتاة الى السفينة التى اقلعت بافراد الاسرة المالكة ، القت نظرة أخيرة على المدينة والارض الممتدة خلفها ، حيث ودعت سيلفي دي بوفال آمالها ، وحبها !

فان الفتاة الفرنسية الجميلة كانت مرتبطة بابن عمها برابطة اخرى غير رابطة الدم والقربى : كانت تحبه ، وكان شارل دى بوفال يبادلها عاطفة بعاطفة ، وقد تعاهدت معه على الزواج بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ويعود الاثنان من زيارة قبر المسيح ، لانهما كانا على ثقة ، مثل رفاقهما جميعا ، من أن الحملة الصليبية السابعة ؛ سوف تسفر عن انتصار الملك لويس . واسترجاع بيت المقدس عنوة من المسلمين .

وخاب ظن الفتاة وتبددت آمالها : فقد قتل اخوها ، ولحق به ابن عمها وحبيبها ، واصبحت يتيمة وحيدة فى هذا العالم . ولكن الملكة مرغريت شملتها بعطفها ، واحتضنتها فى وحدتها ، وحاولت جاهدة أن تنسيها ما هى فيه من حزن وأسى .

وأمضت سيلفي دى بوفال فى الشرق أربعة أعوام أخرى ، فى كنف الملك والملكة ، فى قلعة البحر بصيدا .

وكانت تخرج من القلعة . من وقت الى آخر ، مع القوافل المتنقلة بين مواقع الصليبيين . ثم تعود الى اتخاذ مكانها ، بالقرب من مرغريت دى بروفانس .

ومنذ العام الثانى من اقامتها فى صيدا ، ادركت الملكة ان شيئا ما قد تغير فى حياة وصيفتها العزيزة ، وشكت فى أن هناك سرا تخفيه الفتاة عنها ، وتساءلت مرغريت : ماذا عساه أن يكون ، ذلك السر ؟

وأخيرا ، تمزق عن السر المجهول ؛ القناع الذى كان يحجبه !

***

أفضت الملكة الى الوصيفة برغبة الملك فى الرحيل عن صيدا والعودة الى فرنسا ، ظنا أن الفتاة ستقابل هذه البشرى بالاغتباط ، وتفرح لقرب العودة الى الوطن والاهل والخلان .

لكن سيلفي لم تبتسم ، بل قابلت الخبر بوجه عبوس ، وجمود اثار دهشة الملكة . ودموع انحدرت من مآقيها على الرغم منها . وخيل الى الملكة أنها دموع حزن وانقباض ، لا دموع فرح وانشراح !.

فاخذت مرغريت راس وصيفتها المحبوبة بين يديها ، وقالت لها بلهجة ملؤها العطف والحنان :

ـ سيلفي .. يخيل الي أن خبر رحيلنا عن هذه الديار يؤلمك . قولي لي : ما الداعي الى هذه الدموع التي لا تنم عن ارتياح وسرور ؟

فالقت سيلفي بنفسها على قدمي مولاتها ، وانهمرت الدموع من عينيها ثم رفعت رأسها ونظرت الى مرغريت نظرة أفرغت فيها كل ما في صدرها من أمل ورجاء واحترام ، وقالت بصوت تقطعه الزفرات :

ـ مولاتي ! اريد البقاء هنا .. لا ارغب في العودة الى فرنسا .. لم يبق لي هناك أحد من الاهل والاصدقاء .. انا يتيمة الابوين ، لا أسرة لي أنتمي اليها ولا بيت لي ألجأ اليه .. ولو لم يغمرني عطف مولاتي الملكة ومولاي الملك ، لكنت الآن في حالة بؤس وشقاء ، بل لكنت الآن في عداد الاموات ، بعد مصرع أخي ، ووفاة خطيبي !

ـ وماذا تخشين يا ابنتي ، ما دمت مقيمة في كنفي ، وما دام الملك يشملك برضاه ، على حين ارعاك انا بعنايتي ؟

ـ مولاتي .. انني ..

ـ سيلفي إخشى أن أكون قد أدركت الحقيقة . انك تحبين . لا اعتقد أن عاطفة غير عاطفة الحب تحملك على التخلي عني في الساعة التي يبلغ فيها فرحي أقصاه والتي أستعد فيها للعودة الى بلادنا المحبوبة . قولي لي الحقيقة يا ابنتي .. يا أختي .. ولا تخفي عني شيئا . لقد عرف قلبي الحب ، وأنا امرأة مثلك يا سيلفي ، أفقه ما تنطوي عليه قلوب النساء ، وما ينتابها من عذاب أليم اذا ما داعب الحب أوتارها بأنامله !

تشجعت الفتاة وأدركت أن لا بد لها من الافضاء الى مولاتها بالسر الذي تكتمه في صدرها وأن يوم الرحيل قريب ، وأن الملكة مرغريت أولى الناس بالاطلاع على ذلك السر، وأكثرهم تسامحا في الموافقة على رغبة الفتاة في البقاء .

فجلست الملكة على مقعد وثير ، أمام نافذة غرفتها المشرفة على البحر ، وجلست سيلفي على الارض عند قدميها . وهناك ، على هدير الامواج المتكسرة على أسوار القلعة وصخور الشاطىء ، افضت الى مولاتها بما يتأجج في صدرها من غرام جديد !

قالت سيلفي دي بوفال لمرغريت دي بروفانس :

ـ تذكرين يا مولاتي انني خرجت منذ سنتين مع قافلة فرنسية تحرسها كوكبة من فرساننا . وقد هوجمت القافلة في الطريق ، وقتل فريق من الفرسان ، وتشتت الرجال والنساء في البراري والقفار ، ووصل منهم من ساعدهم الحظ وأخذ الله بأيديهم الى بعض معاقل الصليبيين ففازوا بحياتهم ، اما انا فقد اغمي علي في أثناء المعمعة . وعندما أفقت وجدت نفسي كما تعلمين في مضرب وسط الجبال ، وحولي جماعة من النساء العربيات

ـ أعلم ذلك كله يا ابنتي . فقد انقذ حياتك شاب من ابناء هذه البلاد اشفق عليك واحتملك على صهوة جواده الى مضارب عشيرته ، ثم اعادك الى صيدا ، وصل بك الى الاسوار ، ولم يغادرك الا بعد ان دخلت المدينة آمنة .

ـ ان ذلك الشاب يا مولاتي في صيدا الآن ..

ـ كيف ذلك ؟

ـ نعم . فقد اشترك مع المسلمين في هجومهم على المدينة في العام الماضي ، عندما هاجموها في غيبة الملك ، واقتحموا أسوارها ، واهلكوا حاميتها ، وقتلوا من قومنا الفي شخص لا تزال تبكيهم الى الآن ..

ـ رحمة الله عليهم !

ـ كان ذلك الشاب الذى انقذ حياتي منذ سنتين بين المهاجمين المغيرين ، وقد شاءت الاقدار ان اعثر عليه جريحا في زقاق مظلم ، وما وقع نظرى عليه حتى سمعت صوتا هو صوت الضمير يهيب بي أن أنقذ حياة هذا الرجل كما انقذ حياتي من قبل ، وقد انقذت حياة الشاب ونقلته الى منزل جندى من بلدتى ، وهو لا يزال مقيما فيه الى الآن !

ـ وهل شفى من جراحه ؟

ـ نعم . ولكن حياته لا تزال في خطر . فهو مهدد بالموت على الدوام ، لانه يشكو ضعفا في قلبه .. وقد زاد ذلك القلب ضعفا بعد أن برح به الحب !

ـ هل يحبك ؟

ـ واحبه !

ـ ما اسمه ؟

ـ رامح

ـ ابن من هو ؟

ـ ابن الشيخ طالب من عرب البلقاء ، وأبوه من اسياد قومه ..

ـ اذن ، فانت ترغبين في البقاء هنا للسهر على حياة هذا الشاب ، وهو يرغب في اتخاذك زوجة له ؟

ـ لن يتم هذا الزواج يا مولاتي ، فرامح مشرف على الموت ، ولن يعيش طويلا . واذا كنت ارغب الآن في البقاء بجانبه ، فلكي اخفف عنه اهوال المرحلة الاخيرة من مراحل هذه الحياة . وهذا نذر تعهدت بوفائه أمام العذراء مريم ، عندما انقذ هذا الشاب العربى المسلم حياتي . فقد نذرت لها أن انقذ حياة شاب من الاعداء . وأبت

الاقدار الا ان يكون ذلك الشاب هو منقذى بعينه ، وان تحل عاطفة الحب فى قلبى محل عاطفة العرفان بالجميل والوفاء بالنذر !

ـ لك ما تريدين يا ابنتى !

اقلعت المراكب من صيدا حاملة الملك لويس التاسع وأهله وذويه وحاشيته ، قاصدة الى فرنسا ، كما أقلعت قبل ذلك اليوم بأربعة أعوام من دمياط قاصدة الى لبنان . وبقيت سيلفى دى بوفال ، الفتاة اليتيمة العاشقه ، فى مدينة صيدا ، تحمل أمرا من ملك فرنسا بالا يعترضها أحد فى روحاتها وغدواتها ، بين قلعة البحر وحصون الصليبيين فى الاقطار المقدسة ، وألا يمس أحد بالسوء ذلك الشاب العربى الذى أنقذته الفتاة من الموت !

واقامت سيلفى فى الشرق ثلاث سنوات أخرى ، تسهر على راحة الشاب المريض وتحنو عليه حنو الام على رضيعها ، والعاشقة على حبيبها !

ولكن الموت سطا عليه فى سنة ١٢٥٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٥٥ للهجرة ، فحمله فريق من جنود الحامية الى خارج أسوار المدينة ..

وهناك ، غمرت سيلفى دى بوفال وجه الحبيب بدموعها ، وطبعت على جبينه قبلتها الاولى ، وسلمت الجثة الى جماعة من بنى قومه ، فنقلوها فى هودج الى مضارب الحى فى جبال « وادى التيم » حيث دفنت بين الصخور .

هناك يرقد رامح بن طالب بن عدى شيخ قبيلة « العوادى » من بطون حمير ، التى التحق رجالها بأبطال الفتح الاسلامى وابلوا فى الميادين أحسن بلاء ..

أما سيلفى فقد عادت الى وطنها ، ودفنت نفسها فى دير قصى فى سهول نورمنديا ، حيث قضت حياتها فى عبادة الله والبكاء على حبها الضائع ..

الحب الذى ظل بلا أمل ، ولم يؤمن للفتاة السعادة والهناء ، لا مع ابن عمها الافرنجى ، ولا مع صديقها العربى !

الرسالة المزيفة

يعمد القواد فى الحروب الى الخداع لانه
أحيانا أشد فتكا من الأسلحة ! ..

بعد أن أمن الملك « الظاهر بيبرس البندقداري » البلاد المصرية من خطر الغزو المغولي ، عمد الى تثبيت حكمه وتقوية مركزه في الاقطار المجاورة ، بشد ازر عملائه في فلسطين ولبنان وسورية . وكان هناك فريقان يخشى السلطان بأسهما : الاسماعيليون في حصونهم المنيعةبأرض اللاذقية وجبال عكار ، والرهبان الفرسان الصليبيون في القلاع التي احتفظوا بها في سورية الوسطى والشمالية ، وأشدها خطرا على مواصلات الدولة المصرية والاقاليم التابعة لها « حصن الاكراد » أعظم المعاقل وأكثرها مناعة في تلك البقاع .

وبدات سلسلة جديدة من الغزوات والحملات العسكرية ، أبلى فيها الجيش المصري أحسن بلاء ، وأضاف الى انتصاراته السابقة انتصارات جديدة رائعة ، فاتسعت حدود السلطنة المصرية بين سنتي ١٢٦٧ و ١٢٧٢ للميلاد ، الموافقتين لسنتي ٦٦٥ و ٦٧٠ للهجرة حتى بلغت نهري دجلة والفرات بالعراقين .

سقطت في بادىء الامر قلاع الاسماعيليين في قبضة « بيبرس » ، وتطلع السلطان الى « حصن الاكراد » الرابض على قمة ترتفع الى سبعمائة وخمسين مترا عن سطح البحر ، على مسافة اربعين كيلو مترا من الساحل ، في الطرف الجنوبي لجبال « النصيرية » فمن ذلك المربض الحصين كان الفرسان الرهبان يشرفون على الطرق الموصلة بين الموانى على البحر المتوسط ، ووادي نهر العاصي والمدن القائمة على ضفافه وأهمها مدينة حمص . وكان الصليبيون يسمونه « حصن الفرسان » والعرب يسمونه « حصن السفح » ، فلما حل فيه جنود صلاح الدين ، عرف باسم « الاكراد » نسبة الى أولئك الجنود وقائدهم العظيم .

وقد شعر الفرسان الصليبيون باقتراب الخطر منهم ، بعد تشتت « الاسماعيليين » والتجاء فريق منهم الى القلاع الصليبية ، فانصرفوا بكليتهم الى تحصين معقلهم وتزويده بالمؤن والعتاد ، وتأهبوا لمقابلة الهجوم المنتظر بكل ما يملكونه من قوة وعدة وعدد .. وفي أوائل سنة ١٢٧١ للميلاد الموافقة لسنة ٦٦٩ للهجرة بدأ الملك الظاهر زحفه شمالا ووجهته حصن الاكراد . فانضم اليه طلاب الثأر من الامراء والحكام الذين كان الفرسان الصليبيون يرهقونهم بمطالبهم الكثيرة المستمرة ، اذ كانت كتائبهم تنطلق بلا انقطاع من ذلك الوكر المنيع ، فتجوب السهول والجبال ، وتغزو ضفتي نهر « العاصي » وتفرض

الجزية والضرائب والرسوم ، وتعود الى وكرها محملة بالاسلاب والاموال . ولما عول بيبرس على التخلص من الاسماعيليين والفرسان معا ، كان هؤلاء يتقاضون مبالغ كبيرة من المال كل عام من أمراء حماه وحلب وحمص ، ومن زعماء الاسماعيليين ، فضلا عن خراج الكنائس والمزارع التى يملكونها فى انحاء البلاد . وكانت تلك الاموال تكدس فى اقبية الحصن ، فى مكان لا يعرفه غير قائده واقرب المقربين اليه . ولكن دافعى تلك الجزية تمردوا على الفرسان فى خلال الصراع الذى نشب بين السلطان والاسماعيليين ، ثم هرعوا اليه لمقاتلة الصليبيين عندما اعتزم مهاجمتهم فى عقر دارهم . وفى مطلع شهر فبراير سنة ١٢٧١ ، كانت جيوش بيبرس وحلفاؤه تضرب الحصار حول حصن الاكراد تمهيدا لمهاجمة أسواره وابراجه ..

***

كان دفاع الفرسان عن حصنهم رائعا مجيدا ، ولم تقل مقاومتهم عن هجوم أعدائهم شدة وعتادا . فقد شهد سفح الجبل الاجرد ، خلال ايام واسابيع متعاقبة ، اسودا تناضح أسودا . وردد الصدى من واد الى واد قعقعة السلاح وصياح المتحاربين على نور الشمس وضوء القمر وفى الليالى القائمة سواء بسواء . وتبارى الفريقان فى ميدان القتال وحلبة البطولة ومضمار التضحية ، وراح النصر يبتسم يوما لهذا ويوما لذاك ، الى أن أدرك قائد الرهبان الفرسان فى النهاية أن الدائرة دائرة عليهم ان عاجلا وان آجلا ، وان مقاومتهم لن تنقذهم من الهلاك مهما تطل مدتها . فأراد أن يعلن باسم رجاله رغبته فى وضع حد لذلك النضال المرير ، ويطلب وقف القتال والدخول فى مفاوضة لوضع شروط التسليم ، ولكن معاونيه فى القيادة لم يوافقوه على رأيه ، بل قرروا المضى فى المقاومة حتى ينفد منهم الزاد والماء ، أو يؤخذ منهم الحصن عنوة واقتدارا !

وشدد « بيبرس » الهجوم فاقتحم بابين من أبواب المعقل واحتل جزءا من الاسوار . ولكنه عجز عن اقتحام الابراج فعمد الى الحيلة والخداع ، وهما سلاحان كانا — ولا يزالان — من الاسلحة الشائعة فى الحروب !

فقد وصل الى الحصن فى يوم ما رسول يحمل الى قائد الفرسان خطابا من أمير طرابلس الصليبى . يطلب فيه الى حماة الحصن أن يسلموه للسلطان المصرى حقنا للدماء ، اذا وافق السلطان على منحهم شروطا مشرفة للتسليم ..

وكانت هذه الاشارة التى تلقاها القائد من رئيسه الامير تتفق مع رغبته فى وضع حد للقتال ، فدعا معاونيه مرة أخرى الى مجلس حربى ، وعرض عليهم فكرته الاولى من جديد ، ودعمها بالرسالة التى وصلت اليه من صاحب طرابلس ، فاقتنعوا فى هذه المرة ، وعهدوا اليه فى اجراء المفاوضة .

وقبل « بيبرس » المفاوضة وهو يضحك فى سره ، لان الرسالة

لم تكن من صاحب طرابلس ، بل كانت من صنع يده هو نفسه . فقد كتبها واوصلها الى قائد الحصن الذى وقع فى الفخ وطلب التسليم ؟

وفى اليوم الثامن من شهر ابريل سنة ١٢٧١ ، الموافقة لسنة ٦٦٩ للهجرة ، كف الفريقان عن القتال ، وقدم الرهبان شروطهم الى « بيبرس البندقدارى » ، وتم الاتفاق على أن يخرج الفرسان من حصنهم معززين مكرمين ، وأن يحتفظوا باسلحتهم ودروعهم وخوذاتهم . وان يأخذوا معهم ستين جرادا بعدتها الكاملة ايضا ، وأن يحمل كل منهم ألف قطعة من الذهب لا اكثر ، وأن يحملوا عشرين من البغال والحمير ما يكفي من المثونة والزاد لمدة شهر كامل ، وأن تأخذ النساء ما يحلو لهن أخذه من الذهب أيضا لكل امرأة . أما الذين كانوا فى الحصن من أصدقاء او حلفاء أو خدم أو أسرى من أبناء البلاد ، أيا كان مذهبهم ، فيترك لهم الخيار فى مرافقة الفرسان الرهبان فى رحيلهم ، أو البقاء فى الحصن ، على أن يؤمنهم الغالبون على أرواحهم ، ويتعهدوا لهم بتوفير وسائل السفر لهم فيما بعد اذا رغبوا فى ذلك .

ونفذت الشروط بأمانة وصدق من الطرفين . وابتعدت قافلة الفرسان الصليبيين مزودة بالتحيات الطيبات ممن كانوا بالامس اعداء يقذفون الاسوار بالنبال ويدقون ابرابها بالمجانيق ، واصبحوا بين ليلة وصباح أصدقاء ازالت معاهدة الصلح كل حقد من نفوسهم .

وقد عرف الصليبيون امر الرسالة المزيفة التى تلقاها قائد الحصن فى أثناء الحصار ، بعد أن فات الوقت وانقضى كل شيء .

واعتزم « بيبرس البندقدارى » الاقامة مدة من الزمن فى حصن الاكراد ، لترميم ما خربه الحصار فيه ، ووضع حامية تحتله وتدافع عنه فيما بعد لو خطر لعدو أن يهاجمه من جديد .

اما الذين كانوا داخل الاسوار من غير الرهبان الفرسان ، فقد رحل بعضهم ، وبقى البعض الآخر . واما الاسرى ، فقد أعاد «بيبرس» اليهم حريتهم ، وكان بينهم خمسة من الجنود المصريين فالتحقوا بجيش السلطان فرحين مهللين !

لم يبق من النساء فى حصن الاكراد غير واحدة . ولم تمض على سقوطه الا ايام حتى طلبت هذه المرأة مقابلة السلطان لاطلاعه على سر لا يعرفه احد غيرها !

وأجابها « بيبرس » الى رغبتها . واذا به أمام امرأة فى العقد الخامس من العمر ، قوية البنية ، جهورية الصوت ، يبدو أن تخاطبه انها الفت حياة الخشونة فى العراء ، وان يديها خاليتان من نعومة أيدى ربات الخدور ، وعينيها لا ترهبان بريق السيوف ورؤية الدماء تسيل فى المعارك : انها امرأة محاربة ، من أولئك النسوة المحاربات ، اللواتى كثيرا ما كن يرافقن الرجال فى غزواتهم وفتوحاتهم ، ويذكين فى صدورهم نار الحماسة فى الميادين ..

وأفضت المرأة الى السلطان بالسر الذى قالت أنها تعرفه دون سواها من الناس :

ــ أيها المولى ... ان التى تحدثك الآن مصرية من مدينة دمياط ..

وما اسم هذه المصرية التى افاجأ الآن بلقائها فى حصن كان بيد الصليبيين منذ اكثر من ثلاثين سنة حتى يومنا هذا ؟

ــ أسمها « حسنة » وهى اخت الجندى المصرى « محمد طوير » .

ــ وأين هذا الجندى ؟

ــ كان اسيرا عند الصليبيين فى طرابلس ، ثم هرب من الاسر ولجأ الى الاسماعيليين فأجاروه .

ــ وهل كنت معه فى الاسر ؟

ــ كلا ! .. بل لحقت به من مصر ، لما بلغنى ماحل به ... ولاقيت من الاهوال مالا يتصوره خيال ... حتى اخذ الله بيدى ، واجتمعت بأخى بعد فراق دام خمسة أعوام ...

ــ وهل كنت معه فى بلاد الاسماعيليين ؟

ــ نعم ... وتزوجت رجلا منهم ، هو مبروك بن سلمان الذى تشاجر مع فريق من اخوانه ، وهرب من قلعته ، واحتمى بالرهبان الفرسان فى هذا الحصن ، وانا معه ...

ــ واخوك ؟

ــ قتل يامولاى !.. قتل والسلاح بيده ، فى حومة الوغى !

ــ ومن العدو الذى كان يحاربه ؟

ــ لم يكن اخى يقاتل عدوا ، بل كان يحارب اصدقاء واخوانا !

ــ ماذا تعنين ؟

ــ لما هاجم جيشك أيها المولى حصون الاسماعيليين ، كان اخى ضيفا على القوم . فحارب فى صفوفهم !

ــ حاربنى انا ؟

ــ نعم ... وسقط قتيلا بيد مصرية !

ــ هذا فظيع !

ــ نعم ، هذا فظيع !.. فقد حارب أخى مواطنيه المصريين ، وحارب زوجى مواطنيه الاسماعيليين !

ــ وأين زوجك الآن ؟

ـ قتل أيضا ... لانه كان ضيفا على الرهبان الفرسان ،فحاربه فى صفوفهم !

ـ حاربنى انا ؟ .. مثل اخيك ؟..

ـ نعم !.. وقتل مثله بيد مصرية !..

وستقول لى ان هذا فظيع أيضا ، وستكون ايضا صادقا ! .

سكت بيبرس . وسكتت المراة . ولكن السلطان مزق السكوت بلهجة جافة ، سائلا :

ـ وماذا تريدين الآن ؟

ـ اريد أن اكفر عن ذنوب اخى ، وعن ذنوب زوجى ! .. اننى أرغب اليك فى ان تسمح لى ، انا « حسنة » الدمياطية بأن تلتحق بجيشك ، وان اكون لرجالك دليلا فى هذه الجبال والسهول ، لان حسنة تعرف الطرق والمسالك كلها ، ولا تخطىء فى كشف اثر أو كمين، وفى وسعها أن تنازل بالسيف أو الرمح أو القوس اشجع الفرسان وامهر الرماة !

ـ سيكون لك ماتريدين ياحسنة ... ولكن : هل هذا هو السر الذى اشرت اليه ؟

ـ كلا ... هـذه أمنية تحققت ، وأرجو الا تنـدم أيها المولى على تحقيقها لى . أما السر ، فاليك فحواه : ان هؤلاء الفرسان الرهبان ، الذين وافقتهم على شروطهم ، وتركتهم يرحلون بسلام وأمان ، حاملين معهم أموالا وزادا وسلاحا ، يملكون كنزا لايفنى ! وقد انتظرت اياما لكى يفرغ رجالك من احصاء ما وجدوه فى قاعات هـذا الحصن وأقبيته من نقود وحلى واسلحة ودروع وطعام ، فاذا بهم لا يعثرون الا على القليل منها . ولهذا جئتك الآن لاروى لك ما أعلم : فقد شـاء القدر أن أصغى يوم مصرع زوجى الى حديث دار بين قائد الحامية الصليبية فى الحصن واثنين من أعوانه . وكان الرجل يدل رفيقيه على المكان الذى خبأ فيه كنز الرهبان قبل أن يطلب الامان ويسلمك الحصن ..

ـ وهل عرفت المكان ؟

ـ اليك الكلمات التى سمعتها ، فاننى اردها عليك كما طبعت فى صفحة ذاكرتى : « ... بعد الدهليز الواسع ... امام باب القـاعة الثالثة ... ثلاث خطوات .. ثم الى اليمين فى الدهليز الضيق ... تحت الكوة الاولى .. خطوتان .. الصليب الرابع ... عدد الخطوات نفسها ابتـداء من دهليز البرج .. أمام .. الثالثة .. اربعة مخابىء تحوى كل شىء .. »

***

وسكتت المراة .. وهز بيبرس رأسه قائلا :

ـ وما معنى هذه المميات ياحسنة ؟ وهل تعتقدين ان هذه الكلمات المتقطعة يمكن أن تدلنى على الطريق المؤدية الى كنز الرهبان؟ . ومن أين لك العلم بأن للرهبان كنزا ، وان هذه الاشارات الغامضة مفتاح ذلك الكنز ؟

ـ لقد سمعت أول الحديث وآخره أيها المولى . وكان الرجل يخاطب رفيقيه بصوت خافت ، ففاتتنى عبارات . والتقطت عبارات . لقد قال لهما فى نهاية حديثه ان الاموال والجواهر والحلى والاسلحة الثمينة والآنية الذهبية والفضية كلها وضعت فى صناديق من الخشب المتين ودفنت فى اماكن اربعة ، فى الاقبية والدهاليز ... وكان هناك اثنان آخران من الرهبان يعرفان سر الوصول اليها ولكنهما قتلا اثناء الحصار ، فافضى قائد الحصن الى اثنين غيرهما بالسر لكى يبقى عدد الذين يعرفونه ثلاثة من حماة الحصن ... ولو حاول رجالك الوصول الى المخابىء ، مستعينين بالكلمات التى تمكنت من التقاطها ، فقد يساعدهم الحظ ، ويعثرون على الكنز ، أو على بعضه !

* * *

قضى رجال « بيبرس البندقدارى » عشرة أيام فى البحث والتلمس والحفر والتنقيب ، عثروا فى نهايتها على صندوق واحد يحوى مائة الف قطعة من الذهب ، وصندوق آخر فيه سيوف وخناجر مرصعة بالحجارة الكريمة .. وواصلوا البحث فيما بعد عشرات من الايام والليالى ، ولكنهم لم يعثروا على شىء آخر . فقد ظل الحصن محتفظا بسره ، وظلت الاقبية منطوية على كنزها !

وعاد بيبرس الى مصر . وتخلفت حسنة الدمياطية أخت محمد طوير وزوجة مبروك بن سلمان فى حصن الاكراد . واستانف رجال الحامية بارشادها مساعيهم للعثور على مزيد من الاموال أو الحلى أو الاسلحة . ولكن تعبهم ذهب سدى !..

ومرت اعوام نسى الناس فيها حكاية الكنز . ولكن السلطان قلاوون ، الذى جدد جزءا من أسوار الحصن فى سنة ١٢٨٥ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٤ للهجرة ، تذكر ماكانت تلوكه الالسنة فى هذا الصدد ، وأمر باستئناف البحث مرة أخرى ، بارشاد الدمياطية التى تقدمت بها السنون . فخاب أمله كما خاب أمل غيره من قبل ومن بعد ..

***

ولا يزال « حصن الاكراد » الى أيامنا هذه قائما فى مكانه على قمة الجبل ، أسراره باقية كما كانت يوم سقوطه فى قبضة بيبرس البندقدارى ، وأبراجه تناطح الفضاء وتستقبل اسراب الطيور الحائمة فيه ، وقاعاته وردهاته ودهاليزه تضم بين جوانبها ذكريات العهود الماضية ، المفعمة بالبطولة والاباء والمجد والعظمة . وقد مرت الاجيال متتابعة ، وانقرضت دول وحلت محلها دول . وحصن الاكراد اليوم

يقع في أرض سورية ، وتشرف حكومة دمشق على صيانته والعناية به ..

ولكنه اليوم ليس مسرحا لقتال ولا موضعا لحصار .. انما هو أثر ضخم من آثار الماضي ، بل هو أعظم وأبدع واكمل حصن من الحصون الصليبية الباقية في الشرق ، وأروع تحفة من تحف الفن المعماري الحربي في تلك العصور ...

وفي جوف أرضه ، وتحت حجارة دهاليزه المظلمة ، وفي حراسة ابراجه وأسواره ، وعلى مقربة من الاماكن التي يلجأ اليها سكان القرى والجبال في الشتاء مع قطعانهم ومواشيهم ، يرقد كنز الرهبان الفرسان الصليبيين ، في صناديقه الخشبية المتينة ، المملوءة بالذهب والفضة ، والجواهر والحلي ، والاثواب المزركشة ، والاسلحة المطعمة بالحجارة الكريمة ، والادوات الكنسية التي افتنت في صنعها أيدي المهرة من صاغة ذلك الزمن ...

الجمـــال الجانى

كان جمال الحسناء شؤما عليها ، وشؤما
على الذين فتنهم ذلك الجمال بســحره !



الدعوة الى الحرب الصليبية فى الغرب

قرر ملوك الغرب وامراؤه توجيه حملة صليبية جديدة ــ الخامسة حسب الترتيب التاريخى ــ الى الاراضى المقدسة ، فى خلال العقد الثانى من القرن الميلادى الثالث عشر ، والقرن السابع للهجرة .

وكان مفروضا ان يقود هذه الحملة ملك الانجليز جان سانتير ، وامبراطور المانيا فردريك الثانى ، وملك هنغاريا اندراوس الثانى .

لكن ملك الانجليز مات فى سنة ١٢١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦١٣ للهجرة ، فتخلف شعبه عن الاشتراك فى الحملة .

وانهمك امبراطور المانيا فى توطيد ملكه بمحاربة الخارجين عليه فامتنع عن القيام بتعهداته .

وثار فريق من الهنغاريين على ملكهم ، فعاد الملك اندراوس الثانى أدراجه ، بعد أن كان قد غادر بلاده فى طريقه الى الشرق .

ولكن جماعات من رجال الحرب كانوا قد وصلوا الى مدينة عكاء . فاعتصموا فيها . وظلوا فى جدل مستمر سنة كاملة . حتى تولى قيادتهم ، فى النهاية « جان دى بريين » الفرنسى ، وكان يحمل لقب « ملك أورشليم » بالرغم من أن الدولة الصليبية كانت قد دمرت على يد صلاح الدين . غير أن اللقب توارثه ملوك كان لهم من الملك اسمه ، ولم يكن لهم عرش ولا صولجان .

واختار جان دى بريين طريق السير لجيشه الصليبى . وبدل أن يتجه به الى بيت المقدس لاسترجاعه ، قرر الزحف على مصر ، لكى يضرب الايوبيين فى مقر حكمهم ، بالقاهرة !

فى اثناء ذلك ، مات الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، سلطان الديار الشامية والسورية ، وخلفه اثنان من ابنائه : الملك الكامل نصر الدين فى مصر ، والملك المعظم خيرالدين عيسى فى دمشق . وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على ميناء دمياط فى سنة ١٢١٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦١٦ للهجرة .

ولكنهم لم يحتفظوا بها مدة طويلة . فقد هاجمهم المصريون على حين كانت مياه فيضان النيل تتدفق على جانبى النهر العظيم، فتقطع المواصلات وتغرق السهول . وارغموهم على الارتداد الى الساحل ، ثم على الجلاء عن دمياط ، فأبحروا منها عائدين الى معاقلهم فى سورية . وفى سنة ١٢٢١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦١٨ للهجرة ،

كانت الحملة الصليبية الخامسة قد انتهت بالفشل ، على ذلك النحو . وانصرف الملك الكامل نصر الدين الى تعزيز الاسوار والابراج ، حول مدينة « المنصورة » التى انشأها على النيل فى خلال تلك الحرب ، والتى كان مقدرا لها أن يدون اسمها فى سجل الخلود ، بعد ذلك الوقت بثلاثين سنة !

***

بين الذين وفدوا من الغرب مع الحملة الصليبية الخامسة ، النبيل الفرنسى « جان دى جرامون » وكان فى الخامسة والثلاثين من العمر ، يوم نزل فى عكاء والتحق بجيش الملك جان دى بريين الزاحف على مصر .

سكر النبيل الفرنسى بنشوة النصر يوم دخل مدينة دمياط مع الغزاة المنتصرين . ثم ذاق مرارة الهزيمة يوم غرقت فلولهم فى أوحال الفيضان ، وجلت البقية الباقية منهم عن الميناء المصرى ، وجنود الملك الكامل يتعقبونها . .

واستقر جان دى جرامون فى مدينة عكاء ، حيث نشأت صداقة متينة بينه وبين التاجر النصرانى الشيخ « سعد الخطار » فشاركه فى تجارته ، وعول على الاقامة فى الشرق ، وهجر الوطن الذى جاء منه ، والتزام الحياد فى الصراع القائم بين الملوك والامراء المسلمين والافرنج ، فى البلاد الشامية والارض المقدسة .

ومما جعله يتخذ هذا القرار ، أن عاطفة محبة مفاجئة نشأت بينه وبين ابنة شريكه « مريم » تحولت بسرعة الى حب وهيام . فتزوج النبيل الفرنسى الفتاة العربية ، التى كان الناس يعدونها أجمل بنات النصارى فى ذلك الوقت .

وكان الشيخ سعد الخطار يمارس تجارته متنقلا بين المدن والحصون والقلاع ، وهو على أتم وفاق مع أصحابها ، سواء أكانوا من الشرقيين أم من الغربيين ، من النصارى أم من المسلمين . وكان صهره الفرنسى يرافقه فى جولاته ، وحده أحيانا ، وأحيانا مع زوجته مريم . وعاشت الاسرة فى بحبوحة من الرزق ، ولكن سعادة الزوجين لم تكتمل لان الله حرمهما البنين خلال أعوام طويلة !

وساد سلام نسبى مدة من الزمن فى الارض المقدسة ، وانحصرت الحرب بين الفريقين المتنازعين فى نطاق اشتباكات لم تكن لتسفر عن عواقب بعيدة المدى . .

وفجأة ، وبعد ذلك الهدوء النسبى الذى استغرق بضعة أعوام ، هبت العاصفة من جديد بقدوم الحملة الصليبية السابعة التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع ، فى سنة ١٢٤٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٤٧ للهجرة .

لم يشترك جان دى جرامون فى تلك الحرب لسببين : الاول تمسكه بالقرار الذى فرضه على نفسه بالتزام الحياد . والثانى تقدمه فى السن، فقد جاوز النبيل الفرنسى الستين من العمر !

ولكنه تذكر ماضيه بكثير من التأثر ، يوم بلغته اخبار الحملة التى قادها ملك فرنسا لاحتلال مصر ، ونزولها فى دمياط حيث نزلت الحملة السابقة ، التى كان جان دى جرامون من رجالها ، وانكسار الجيش الفرنسى مرة ثانية على ضفاف النيل ، ووقوع الملك فى الاسر بعد معركتى المنصورة وفارسكور ، فى سنة ١٢٥٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٤٨ للهجرة !

ورأى جان دى جرامون بعينيه فلول الحملة المهزومة تعود الى الارض المقدسة ، فى تلك السنة ، كما عادت اليها قبل ذلك الوقت بثلاثين سنة ، حملة جان دى بريين المهزومة !

***

وساورت الاحزان النبيل الفرنسى الشيخ . وتلاطمت فى صدره الشجون . وتولته فجاة رغبة ملحة فى العودة الى وطنه ، بدافع من شعور حار الرجل فى تفسيره ، بعد تلك الغيبة الطويلة ، وبعد ان اصبح الشرق له موطنا ، ولغة القوم فيه لغته ، وعاداتهم وتقاليدهم عاداته وتقاليده !

أما استبدل ثوبا بثوب ، فارتدى اللباس العربى ، وطوق راسه تارة بعمة وتارة بعقال ، ونسى أو كاد ان ينسى كيف كان يعيش فى اسرته وبيئته ، قبل ان ينزل فى عكاء جنديا شابا ، مع الحملة الصليبية السابقة ؟

افضى الى زوجته المحبوبة بما جال فى خاطره ، وسألها ان كانت تشاركه الرغبة فى الرحيل الى فرنسا ، فجفلت المراة واضطربت، وكان ردها سريعا وحاسما :

ـ ايها الحبيب العزيز ، انى أدرك معنى تلك الرغبة التى استولت عليك بين مساء وصباح . ولكننى لا اشاطرك اياها . فقد مات ابى منذ اعوام وترك لى ، ولك ، ثروته الطائلة . وقد تم الاتفاق بيننا ، انت وانا ، على ان تنفق هذه الثروة فى اعمال البر والاحسان والخير ، لا فرق فى نظرنا بين كنيسة وجامع ، ولا بين نصرانى ومسلم، أو عربى وغربى . ولم يرزقنا الله أبناء يحملون اسمنا من بعدنا ، فعولنا على ان نجعل جميع الاطفال اليتامى والمحزونين ابناء لنا ، فى طول هذه البلاد وعرضها !

وسكت جان دى جرامون . واقتنع بالبقاء فى الارض التى اصبحت وطنا له ، لانها وطن زوجته المحبوبة .

وكأن الله اراد ، بحكمة من عنده ، أن يضىء ظلمة شيخوخته ، وينسيه وحشة غربته ، فرزقه فى آخر أيامه بنتا أطلق عليها الرجل

اسم «نور» العربي ، قائلا انها الشعاع الذى ينير حياته وقد اشرفت على نهايتها ..

وكان جان دى جرامون قد بلغ الخامسة والستين من العمر ، وكانت زوجته دون الخمسين · وقد عد الناس ذلك الحادث السعيد اعجوبة من الله وبركة من السماء !

وفى سنة ١٢٥٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٥٦ للهجرة ، فاضت روح جان دى جرامون فى مدينة طرابلس ، وقد اشرف على نهاية العقد الثامن من العمر · ودفن فى قلعة « سان جيل » المشرفة على المدينة « المثلثة »

وبقيت نور دى جرامون ، مع أمها مريم ابنة سعد الخطار ، وفى حماية الامراء والاقيال الصليبيين والمسلمين على السواء ، فى ربوع الشام وجبال لبنان وهضاب فلسطين ، الى أن لبت الام دعاء ربها ، فى سنة ١٢٦٤ للميلاد ، الموافقة لسنه ٦٦٢ للهجرة ، فى مدينة طرابلس ايضا فدفنت فى الضريح الذى ضم رفات زوجها من قبل ·

***

احاط حكام طرابلس الفتاة اليتيمة بعنايتهم ورعايتهم ·ولما بلغت الصبية السادسة عشرة من العمر ، جعل جمالها يلفت الانظار ، ويثير العواطف فى الصدور !

كانت أمها مريم أجمل نساء النصارى فى شبابها وكهولتها ، فجاءت نور مثل أمها أجمل الصبايا فى الحصون والقلاع والمدن والجبال !

انها طويلة القامة ، ممشوقة القوام ، ينبعث من عينيها بريق هو والسهام سواء ، فيمزق الدرع ويخترق الصدور وينفذ الى القلوب · وتسترسل على كتفيها جدائل شعر أسود ، يتماوج كصفحة البحر يعلوها الزبد لحظة ثم يختفى لكى يعود فيختفى ثانية · ويبرز من صدرها المرمرى نهدان مكعبان ، وتطفو على شفتيها الورديتين ابتسامة أخاذة ساحرة ، لاتفارقهما فى الصحو ولا فى الرقاد · ويشع من ذلك الوجه الفتان حسن يسلب الالباب ويضعضع الرؤوس !

وصفوة القول ، كانت نور دى جرامون ، التى يسميها الافرنج « نورا دى جرامون » من اولئك النساء المتحليات بجمال لا عيب فيه ، واللواتى تقذف بهن الاقدار من وقت لآخر الى هذا العالم ، لكى يجنين بجمالهن على الرجال ، ثم يجنين به على نفوسهن !

وهذا ماحدث لنور دى جرامون ، ابنة جان دى جرامون الفرنسى ومريم بنت الخطار السورية ·

***

فى سنة ١٢٦٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٦٦ هجرية ، كانت نور تقيم فى قلعة سان جيل فى طرابلس ، وكان الفرسان الصليبيون فى

تلك السنة قد خرجوا للضرب والطعان ، ولم يبق منهم فى القلعة غير عدد صغير ، لايتجاوز أصابع اليدين ..

وكان بين اولئك الباقين فى القلعة اثنان من ابنـــــاء الاشراف الفرنسيين ، احدهما يمت بالنسب الى أسرة لوسينيان الشهيرة ، والآخر من أقارب جان دى جرامون ، يدعى لويس دى جرامون ..

وكان الاثنان من عشاق نور الفاتنة ، أخذا بجمالها ، وعلقا بها ، وقامت بينهما عداوة شديدة بسبب تلك الفتاة التى اعرضت عن الاثنين ولم يبد منها ما يشجع احدهما على المضى فى حلمه الغرامى ...

واغتنم الشابان فرصة غياب الفرسان عن القلعة ، لتعقب الفتاة فى روحاتها وغدواتها ، والالحاح عليها بأن تبادلهما الحب وتهبهمـــا جمالها .

وكان لا بد من وقوع اصطدام بين العاشقين . وقـــد وقع ذلك الاصطدام وادى بهما الى المبارزة تحت اسوار القلعة ، فقتل لويس دى جرامون بطعنة سددها مزاحمه الى صدره .

وخطبت الفتاة شابا من أشراف مرسيليا ، أحبها وأحبته ، فهوجم الشاب ذات ليلة وهو عائد الى القلعة ، وقتل قبل ان يصل الى أبوابها واعترف أحد الفرسان بأنه قاتله لانه يحب الفتــاة نور دى جرامون ولا يطيق صبرا على رؤيتها ملكا لغيره !

وانقضت عشرة اعوام والفتاة لم تتزوج ، ولكن جمالها ظل يفتك بالشبان والعشاق ، فوقعت عشرات المبارزات بينهم بسببها ، ونزل الى ميدان المزاحمة عليها ابناء الاشراف وابناء الشعب على السواء !

سطت الحسناء بجمالها على القلوب ، ولكنها فى آن واحد جلبت لنفسها المتاعب والمخاطر !

عقد الامراء والاقيال مجلسا وتبادلوا الآراء فى تلك الحالة الخطيرة وقرروا فيما بينهم أن يرسلوا الفتاة الى الحصـــون النائية فيحول بعد المسافة بينها وبين أولئك الذين لعب جمالها برءوسهم !

ولكن انتقال نور دى جرامون من السواحل الى المناطق الجبلية لم يمنع جمالها من البقاء على حالته من البهاء !

وبلغ خبرها مسامع الامراء والحكام المسلمين فى مدن ســــورية وفلسطين ، فعزموا على مهاجمة الحصون التى تلتجىء اليها نور دىجرامون لحماية جمالها من فرسان الصليبيين ، ولحماية نفسها من ذلك الجمال ، فجعلوا يبثون الارصاد فى كل مكان ، ويحملون بجموعهم على كل حصن تجتاز أسواره ، فيتقاتل العرب حول الحصن ، وتمتزج فى البطاح دماء العرب بدماء الافرنج ، وتشبع الجوارح والضباع من لحوم الضحايا ــ ضحايا الجمال الجانى الذى تجسم فى شخص نور دى جرامون !

وفى سنة ١٢٨١ للميلاد ، الموافقه لسنة ٦٧٩ للهجرة ، عادت المرأة الفاتنة ، وقد بلغت الثلاثين من عمرها ، الى قلعة طرابلس ، تعبة راغبة الى مضيفيها من الاقيال الصليبيين فى أن يمهدوا لها سبيل الرحيل عن الشرق والابحار الى فرنسا ، قائلة انها وطدت العزم على دخول الدير وارتداء ثوب الراهبات ، هربا من الرجال وهربا من جمالها ، وقد أصبح عبئا تنوء تحته منهوكة القوى !

فأجابها الاقيال الى رغبتها ، وفى سنة ١٢٨٢ صعدت نور دى جرامون الى سفينة فرنسية ، وأبحرت السفينة فى ذلك اليوم قاصدة الى بلاد الافرنج !

ولكن الاقدار أبت أن تختم المأساة عند هذا الحد !

ففي اليوم التالى ، هبت عاصفة هوجاء أرغمت السفينة على العودة الى طرابلس . وعندما اقتربت من الشاطىء ، قذفت بها الرياح فتحطمت وغرق فريق من ركابها وانقذ الفريق الآخر ..

وكانت نور دى جرامون بين من قدرت لهم النجاة ، فعادت الى قلعة سان جيل ، واعتقدت منذ ذلك الوقت ان الله عز وجل يريد لها البقاء فى الشرق ، وانه أثار تلك العاصفة لمنعها الرحيل الى حيث تريد !

وعاد العشاق الى التناحر بسببها . وزاد الطين بلة ، اقدام اثنين من ابطال الحروب العرب ، على محاولة خطفها من القلعة التى اقامت فيها فتصدى لهما فريق من الفرسان الافرنج ، وقتلوا احدهما ، وهو الامير طالب الشهابى من وادى التيم ، وتمكن رفيقه ، عادل الحمدان ، من الافلات منهم ، بعد أن ثأر للقتيل بقتل فارس صليبى ، ولم يكن ذلك الفارس غير النبيل العاشق من اسرة لوسينيان ، الذى قتل ، قبل ذلك اليوم ببضعة أعوام ، غريمه لويس دى جرامون ، فى طرابلس فى مبارزة كانت الفتاة المشئومة موضع الرهان فيها !

على أثر ذلك الحادث ، الذى اشتبك فيه الفارسان العربيان مع الفرسان الافرنج غادرت نور دى جرامون قلعة سان جيل ، وجعلت تتنقل من جديد ، من حصن الى حصن ومن بلدة الى بلدة ، والمصائب تلازمها ، والموت يحل معها فى المكان الذى تحل فيه !

وانتهى بها المطاف أخيرا الى مدينة عكاء ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨٨ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٧ للهجرة .

وهناك ، ذاقت نور دى جرامون بعض الراحة فترة من الزمن ثم هبت فجأة على تلك المدينة الحصينة عاصفة جنون غرامى كالتى اكتسحت من قبل عقول الفرسان وقلوبهم فى طرابلس وغيرها ..

ووقعت مبارزات عديدة ، داخل اسوار عكاء وخارجها ، بسبب نور دى جرامون ، ذات الجمال الساحر الجانى !

وأوشك أمراء الافرنج في عكاء ان يطردوا تلك الفتاة الخطـــرة من مدينتهم ، خوفا من فتنة عامة يسببها جمالها بين فتيانهم وجنودهم . ولكن حادثا لم يكن في الحسبان غير مجرى الامور واسترعى اهتمام النـــاس : ذلك الحادث هو قيام الملك الاشرف خليل ابن قلاوون بجيشه الى عكـــاء لانتزاعها من قبضة الافرنج !

كان السلطان بيبرس البندقداري قد استولى على يافا وانطـــاكية وغيرهما من مدن الصليبيين . واستأنف السلطان قلاوون الالفي مهاجمة الافرنج بعد ذلك ، فاستولى في سنة ١٢٨٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٨ للهجرة على بعض مراكزهم وانتزع منهم مدينة طرابلس . وجاء بعـــده الملك الاشرف خليل بن قلاوون ، يسعى لطرد البقية الباقية من الصليبيين في تلك الديار .

يقول الحريري : «ان الملك الاشرف توجه لغزو عكاء ونازلها رابع شهر ربيع الاول بجيوش الاسلام وبأمم لا يحصى عددهم . وجدوا في الحصـــار وثبت فيها الافرنج ثباتا عظيما. فجاء الملك المظفر صاحب حماة وعساكره ومعه الملك الافضل. وأخذوا معهم من حصن الاكراد المنجنيق العظيم الملقب بالمنصوري ، حمل على مائة عجلة . وزحف الجيش الى عكاء ســـحر يوم الجمعة سابع عشر جمادي الاول . فارتجت الارض بضرب الطبول واشتد عليها الحصار ، وحين لاحق المسلمون السور هرب الافرنج الى البحـــر . وارتفعت رايات الاسلام ونكست رايات الافرنج. وعمل السيف فيهم عند طلوع الشمس . وهدمت أبراج عكاء وأسوارها . وغنمت العساكر غنائم كثيرة وقتـــلوا الافرنج الذين أمســـكوا بهم عن آخـــرهم . ولم يفلت الا الذين هربوا في المراكب . وأمر السلطان بهدم المدينـــة الى الارض فدكت دكا . وكان هذا الفتح في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هجرية ! »

ويوافق هذا التاريخ الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٢٩١ للميلاد .

على حين القتال محتدم في المدينة ، أدركت نور دي جرامون أن عكاء ساقطة لا محالة في قبضة المسلمين ، وانها ستساق ذليلة الى حيث يريد الغالبون .!

فحاولت أن تهرب الى المراكب الراســـية في البحـــر مع من هـــرب اليها ، ولكنها لم تفلح في محاولتها ، فآثرت الموت على البقاء حية والوقوع في الاسر ...

وبينما جنود الملك الاشرف يطاردون الرجال في أزقة المدينة وداخل مكامن حصونها ، ويلتقطون النساء الهائمات على وجوههن هنا وهناك ، رأوا امرأة بارعة الجمال ، تصيح صيحة اللبؤة الجريحة ، وتقذف بنفسها الى الماء من أعلى أحد الابراج المشرفة على البحر .

هكذا ماتت نور دي جرامون التي يعرفها الافرنج باسم « نورا دي جرامون » والتي جنى جمالها على عشرات الفرسان ، ثم جنى عليها فراحت ضحيته طعمة للاسماك في بحر عكاء !

السلطان والطبيب

انقسام المسلمين ضمن النصر للصليبيين ...
وانقسام الصليبيين ضمن النصر للمسلمين..
والاتحاد أساس القوة ، فى كل آن ومكان !.

أربعون الف فارس ومائة الف راجل : ذلك هو الجيش الذى غمر به السلطان قلاوون الديار الشامية ، لاسترجاع ما يمكن اســـترجاعه من المدن والمعاقل الباقية في قبضة الصليبيين ٠

حالف النصر أعلام السلطان ، واستولى على بعض تلك المعاقل والمدن، وفي شهر مارس سنة ١٢٨٩ ميلادية ، الموافقة لسنة ٦٨٨ للهجرة ، ضرب الحصار على مدينة طرابلس ، ونصب حولها عشرين من دافعات القذائف ؛ وجاء بألف وخمسمائة من الخبراء في بث الألغام ، وطلب منهم العمل ليلا ونهارا فى تقويض الأسوار وأحداث الثغرات فيها ٠

كانت طرابلس تعانى أزمة لم يكن من الســـهل علاجها والخروج منها ٠٠ فقد حكمتها أسرة فرنسية خلال قرنين من الزمان ، وجعلت منهـا عاصمة لامارة ضمت جزءا كبيرا من جبل لبنان ، وميناء زاهرا تركزت فيـه الحركة التجاريه والصناعية فى الشرق الادنى ، وقاعدة حربية منيعة يطل عليها حصن ضخم شيده أميرها ريمون دى سان جيل ، وعرف باســـم « قلعة سنجل » أو « سان جيل » حتى أيامنا هذه ٠

وانقرضت الاسرة التى حكمتها فنشـــأ نزاع بين الطامعين فى الاستئثار بالســلطة فيهـا ، وبعـد مشاحنات ومؤامرات عديدة ، تولت أمرها امرأة تمت بالنسب الى أسرة سان جيل ، الاميرة « لوسيا » التى اضطرت الى قبول حماية جمهورية « جنوى » ضمانا لسلامة المدينة ٠

أدرك قلاوون أن انقســـام الصليبيين عـلى أنفسهم ، وتخـاذلهم وتناحرهم وتنافس زعمائهم على السلطة ، كل ذلك من شأنه أن يضعف مركزهم ويمهد السبيل لقهـــرهم ، كما حدث قبل ذلك بمائتين من السنين ، يوم اغتنم الصليبيون فرصة تناحر المســلمين فى الشرق وتخاذلهم وانقسامهم بعضهم على بعض ، فضربوا ضربتهم واستولوا على سورية وأقاموا فى فلسطين دولة أورشليم ، وأنشأوا حولها امارات صغيرة تابعة لها ، منها امارة طرابلس بلبنان ٠٠

شعر الصليبيون بالخطر بعد تفاقمه ٠ وبدءوا يعـدون عدتهـم للمقاومة ولكن بعد فوات الوقت ٠ ونسوا خلافاتهم فى ساعة الشـــدة ولكن بعد أن ضاعت منهم فرصة الاستعداد والتأهب للمعركة !

طلبت لوسيا النجدة من كل صوب ٠ فأسرع اليها غليوم رئيس فرسان الهيكل ، وأرسلت اليها جمهوريتا جنوى والبنـــدقية سربا من

السفن المحملة بالرجال والعتاد والمؤن ، وأوفد اليها هنرى ملك قبرس أخاه أمورى على رأس قوة من الفرسان ، وجاء غير هؤلاء من المواقع التى كان الصليبيون باقين فيها ، وأملهم جميعا أن يفكوا الحصار الذى ضربه قلاوون على المدينة ٠

* * *

جعل القتال يشتد يوما عن يوم ٠ وكل من الفريقين يعلم أن مصير المدينة وامارتها مرهون بنتيجة ذلك الحصار ، وأن سقوط طرابلس معناه ، فى المستقبل القريب ، ضياع ما تبقى من ممتلكات الصليبيين على طول الساحل وفى قلب الجبال ٠

وبعد ثلاثة أسابيع ، تزعزعت ثقة الجنويين والبنادقة ، فتشاوروا فيما بينهم ، وقرروا الانسحاب بطريق البحر ، حاملين معهم كل ما يستطيعون حمله مما يملكون ٠

قرروا ونفذوا القرار ٠٠٠

وعلم قلاوون بما حدث ، وفطن الى تضعضع الصفوف فى داخل المدينة ، فأصدر أمره بالهجوم عليها من جميع الجهات ، فى السادس والعشرين من شهر ابريل ٠

تدفق المقاتلون على المدينة من فوق الاسوار ومن خلال الثغرات التى أحدثوها فيها ، وانتشروا فى الشوارع والازقة والحوارى يقتلون ويخربون ، عملا بتقاليد الحرب المعمول بها فى ذلك الزمان ٠٠

وارتفع الصراخ والعويل ، ونشبت الحرائق فى كل مكان ، واندفع السكان يطلبون النجاة من الميناء ، أو حبسوا أنفسهم فى البيوت منتظرين فيها الموت أو الفرج بمعجزة !

دخل قلاوون المدينة مع رجاله ٠ وأشرف بنفسه على تنفيذ خطة الهجوم وادارة دفة المعركة ، وكانت أوامره لجيشه صريحة واضحة : الرجال يقتلون ، والمرضى والجرحى يعفى عنهم ، والنساء والاطفال يحشدون فى أحياء المدينة ، على أن يفتدوا بالمال فيما بعد ، أو يساقوا الى الاسر ٠٠٠

* * *

أمام مدرسة الطب ، اقتحم موكب الملك المنصور رجل ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، طويل اللحية ؛ مسترسل الشعر ، وهو يصيح : « السلطان !٠٠ أعرضوا أمرى على السلطان !٠٠ لن يرفض السلطان لى طلبا ! ٠٠ »

وقبل ان يصل الرجل اليه ، عرفه قلاوون ٠ فأشار الى رجاله بأن يفسحوا له طريقا ، وناداه باسمه : « تعال يا يعقوب ! »

وقبل أن يفيق شهود هذا المنظر من دهشتهم ، كان الغريب قد أمسك باحدى يديه لجام الفرس ، ووضع اليد الاخرى على ركبة السلطان وهو يقول :

ـ لقد حلت ساعة الوفاء بالعهد يا مولاى ··· ويعقوب يطلب منك اليوم ، فى طرابلس ، أن تمنحه المكافأة التى وعدته بها فى حصن المرقب ، منذ أربعة أعوام !

فقال السلطان :

ـ وما هى المكافأة التى تطلبها يا يعقوب ؟

ـ العفو عن الذين تعهدت لهم ، بالنيابة عنك ، بأن لا يصيبهم أذى !

ـ أين هم ؟

ـ فى داخل هذا البناء ، وفى الربع الممتد خلفه ·

ـ عليهم الامان جميعا يا يعقوب ·· وسيصحبك فريق من رجالى لايصالهم حيث تريد ··· لقد وفيت دينى نحوك !

ـ عافاك الله أيها المولى ، وصانك وسدد خطاك !

***

كان على الملك المنصور قلاوون حقا دين نحو ذلك الرجل ···

ففى سنة ١٢٨٥ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٤ ، خرج السلطان من مصر على رأس جيشه ، فى زحفه الموفق على الديار الشامية ، لاستخلاص معاقل الصليبيين · وفى شهر مايو من تلك السنة ، هاجم قلعة «المرقب» الواقعة فى شمال طرابلس ، واستولى عليها من جمعية فرسان القديس يوحنا · وتعاهد معهم على أن يرحلوا آمنين الى حيث يريدون ، وأن يأخذوا خيولهم وأسلحتهم ···

بعد ذلك النصر ببضعة أيام ، أصيب قلاوون باغماء متقطع ، وارتفعت حرارته ، حتى خشى رفاقه على حياته ···

وكان بين الباقين فى الحصن من رجاله المرضى ، طبيب تخلف معهم للعناية بهم · فعلم بما حدث للسلطان ، وتقدم طالبا أن يسمح له بمعالجته والعناية به ···

تردد رفاق الملك المنصور فى بادىء الامر ، وخافوا أن يكون الطبيب سيىء القصد ، ولكن السلطان نفسه أمرهم بأن ينادوه ، ولما مثل بين يديه ، قال له :

ـ أنا لا أعرفك ، ولا أنت تعرفنى ··· بل الظواهر تدل على أن بينى وبينك عداء مقيما ! · فأنت من رجال هذا الحصن ، وأنا العدو

القادم من بعيد ، الذى انتزع الحصن من أصحابه وأخرجهم منه ...
فأية عاطفة هذه التي تجعلك تهتم بأمرى وتحرص على سلامتى ؟

فأجاب الطبيب :

ـ عاطفة المحبة أيها المولى .. الممزوجة بالصدق والاخلاص ، والتى ينبغى أن يختلج بها صدر كل طبيب نحو كل عليل ، أيا كان بلد الاثنين وأيا كان دينهما !

ـ ما اسمك ومن علمك الطب ؟

ـ اسمي يعقوب الشمالى . وقد درست الطب على الرهبان والنساك فى أديرة لبنان وصوامعه . وتلقنت معه أن رسالة الطبيب هى النجدة والمروءة .

ـ مارس اذن عاطفة المحبة التى أشرت اليها ، وكن حريصا على أداء رسالتك ...

كان قلاوون مصابا بتسمم . فأنقذ الطبيب حياته ، بان عالجه بدواء أعده بيده من الزيوت والاعشاب . وظل يلازمه بلا انقطاع حتى شفى تماما وزال عنه كل خطر .

أراد أن يكافئه بالمال فرفض أن يأخذ شيئا . وعلم منه أنه يقضى أيامه متنقلا من مكان الى مكان ، يمارس مهنته بدون مقابل ، ولا يرضى أجرا أكثر من القوت الضرورى ، والدعوات الطيبة !

وبعد أن اطمأن الطبيب على مريضه ، طلب السماح له بالرحيل ، فاذن له قلاوون ولكنه ألح عليه بأن يفضى اليه برغبة ما ، أيا كانت ، لكى يحققها له ..

فأجاب يعقوب :

ـ الايام أيها المولى ، مليئة بالمفاجآت ... وقد يجىء منها يوم أتقدم فيه اليك بتلك الرغبة التى تلح على الآن بأن أفضى بها اليك !

ـ ان على لك يا يعقوب اذن دينا يحق لك أن تطالبنى به فى الوقت الذى تختاره ... وأتعهد لك من الآن بأن أقوم بالوفاء !

ومرت الاعوام ...

وكانت مفاجأة للسلطان ، ساعة أقبل عليه يعقوب الشمالى ، أمام مدرسة الطب ، وذكره بعهده ؛ وطالبه بالوفاء !

وخرج من المدينة نحو مائة من الرجال والنساء والاطفال ، الذين طلب لهم يعقوب العفو والامان !

وأمر قلاوون بتدمير المدينة القديمة ، الممتدة على شاطىء البحر ، وتشييد مدينة جديدة ، عند سفح الجبل حيث تربض قلعة ستجل ..

وفى المدينة الجديدة ، أقام يعقوب الشمالى وذلك الفريق من السكان الذين أنقذهم من الموت أو الاسر أو التشريد ٠

ترك لهم السلطان قلاوون حرية تقرير مصيرهم والاختيار بين البقاء فى مدينة طرابلس الجديدة ، أو اللحاق بقومهم ٠٠٠ فاختاروا جميعا البقاء ٠٠

قال الذين تحدثوا بالنيابة عنهم الى الطبيب الشمالى :

ـ لقد ولدنا في هذا البلد ٠ ونشأنا فيه ٠ وفيه نريد أن نقضى بقية العمر ٠ أما انتقال المدينة من يد الى يد ، وحلول حاكم فيها محل حاكم ، فهو أمر أراده الله ، ولا مرد لارادته !

حمل يعقوب الشمالى الى السلطان قلاوون رغبة الجماعة ، فأمر الملك المنصور بأن تقطع لهم أرض كافية لاقامتهم ، وأن تشملهم فى مستقبل الايام حماية الحكام ٠

أما الطبيب ، فقد أنشأ له السلطان دارا فسيحة ، جعل الشمالى منها ملجأ للمرضى واليتامى والمعوزين ، وأغدق عليها قلاوون المال قبل وفاته بعد سقوط طرابلس بسنة واحدة ، وظل الطبيب يتلقى العون والمساعدة من خلفاء السلطان الى أن وافاه أجله فى سنة ١٣٢٠ ميلادية الموافقة لسنة ٧٢٠ للهجرة ، فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون

وفى عهد هذا السلطان ، سنة ١٣٠٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٧٠٣ للهجرة ، سقطت البقية الباقية من معاقل الافرنج فى سورية ، وتم توحيد الديار الشامية والمصرية لمدة من الزمن !

كنوز الفرسان

قصص الكنوز كثيرة فى تاريخ الحروب الصليبية . وهذه قصة منها !

القافلة تسير الهوينا ، فى طريقها من طرابلس الى اللاذقية ، تنوء ظهور بغالها وحميرها تحت الاحمال الثقيلة ، المكونة من مصنوعات ثمينة ، ومنتجات الارض ، وأسلحة وأدوات مختلفة ، عهد بها التجار الى زميلهم « فرج بن جابر » ليوصلها الى عملائهم فى شمال القطر السورى

وحول القافلة ، وفى مقدمتها ومؤخرتها ، سار فرج ومعه رفاقه يحرسون الركب ويسهرون على سلامته بعين حذرة يقظة ، فالزمن يسوده القلق • وحالة الامن مضطربة • والمسافرون معرضون فى كل لحظة لمفاجآت غير سارة ، تضطرهم للدفاع عن أنفسهم بالسلاح ، وعن أموالهم بالارواح !

كان ذلك فى سنة ١٢٩٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٨٩ للهجرة • والقلاع والحصون والمدن الباقية في حوزة الصليبيين الافرنج تهاجم وتسقط فى قبضة الجيوش المصرية والسورية موقعا بعد موقع • ولم يبق منها غير القليل لم يتم استرجاعه بعد •

فى السنة السابقة ، سقطت مدينة طرابلس • وكانت مدينة اللاذقية قد سقطت قبلها بسنتين ، فى عهد الملك المنصور قلاوون ، وواصل الحرب بعده ابنه الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، وعهد الى القائد المحنك علم الدين سنجر الشجاعي بتصفية ماتبقى للافرنج من معاقل فى البلاد السورية المتحدة فى دولة واسعة الارجاء مع البلاد المصرية •

كان « فرسان الهيكل » الصليبيون يحتفظون بقلعة « عتليت » بفلسطين ، وميناء « صيدا » بلبنان ، وبلدة « طرطوس » الحصينة على الساحل السورى بين طرابلس واللاذقية •

فطرطوس تقع اذن على الطريق الذى تسلكه قافلة التجار بقيادة فرج بن جابر • ولابد من الاحتراس لان الفرسان يخرجون منها فى حملات منظمة للغزو والسطو • وهم فى هذا المضمار ذوو خبرة واسعة وجرأة وشجاعة متناهية •

لهذا ، لما أصبحت القافلة على مسافة قريبة من طرطوس ، أمر فرج ابن جابر رجاله بأن ينحرفوا بها عن الشاطىء ، ويسلكوا دروبا ضيقة تخترق النجاد المحيطة بها ، بين الاشجار والصخور •

لكن هذه الحيطة لم تنقذ القافلة مما كان فرج يخشاه عليها • فقد

فاجأها جماعة من فرسان الهيكل المدججين بالسلاح ، واستولوا علـــى الاحمال والبغال والحمير ، وقاوم فرج ورجاله مقاومة شديدة ، واستبسلوا في الدفاع ، ولـكنهم غلبوا على أمرهم فقتل معظمهم ، ونجا بعض الخدم بأنفسهم ففروا على خيولهم الى الجبال ووقع فرج بن جابر وثلاثة من التجار أسرى في قبضـة الفرسان الذين ساقوهم الى طرطوس وزجوا بهم في سجون قلعتها المظلمة ٠

❋ ❋ ❋

في تلك القلعة ، كان فرسان الهيكل يحتفظون بكنوزهم الكثيرة من مال وجواهر وحلي وآنية ثمينة وأسلحة وغير ذلك من أسلاب الحروب وكان الامين على تلك الكنوز وحارسها في مخبئها صديقا لفرج بن جابر عرفه في طرابلس حيث كان يقيم من قبل ، وحيث تزوج الرجلان فتاتين صديقتين ٠

تزوج ابن جابر الفتاة « صافية بنت عمار » وهي من سلالة أمراء بني عمار الذين حكموا طرابلس قبل أن يستولى عليها الصـــليبيون ٠ وتزوج صديقه « جوليان كالا » الفرنسي ، الفتاة « ايما » رفيقة صافية منذ سن الطفولة ، وهي مولودة في طرابلس من أب أسباني ٠

ربطت بين الاسرتين أواصر الالفة والمحبة ٠ وعاشتا جارتين في صفاء وهناء ٠ ولما استرجع علم الدين سنجر الشجاعي المدينة الزاهرة وخرج منها اصحابها الافرنج ، أبى جوليان أن يبقى فيها ، ورحل عنهـــــا مع زوجته « ايما » ، والتحق بفرســـان الهيكل الذين كانت له عندهم مكانة خاصة ، فعهدوا اليه بحراسة كنوزهم في قلعة طرطوس ٠

لم يمكث فرج بن جابر في سجنه أكثر من أســـبوع ٠ فقد علم جوليان بأمره ٠ وتشاور مع زوجته فيما يجب عليهما أن يصنعا ، وقررا أن الوفاء يقضي عليهما بانقاذ الرجل الذي كان لهما جارا وصديقا ٠

فوجيء فرج بدخول جوليان عليه في سجنه ، وكان يجهل أنه يقيم في القلعة ٠ وأطلعه الرجل على الخطة التي رسمها مع زوجته لانقـــاذه من الاسر مع رفاقه ٠ فشكره فرج عـــلى مروءته ووفائه ! وكان جواب جوليان على هذا الشكر قوله لصديقه :

ـ لو كنت مكلفا بحراستك أنت ، هنا ، لما أقدمت على ما أنا فاعله ٠ ولكنني مكلف بحراسة الكنوز فقط ، لا بحراسة الاسرى والمسجونين ٠ فليس اذن في مساعدتك على الهرب ما يتنافى مع المهمة الملقاة على عاتقي ، ومن ثم ليس فيها ما يعد خيانة للامانة ٠٠٠

وتعانق الصديقان ٠٠

وفي ليلة حالكة السواد ، تسلل فرج بن جابر ورفاقه الثـلاثة من القلعة ، واجتازوا أزقة البلدة متنكرين ، ودليلهم جوليان كالا حارس الكنوز ٠ وعند الاسوار ، كانت ايما في انتظارهم ومعها اربعة جيـــاد محملة بالزاد ، ومن سرج كل منها يتدلى سيف في غمده ، وقوس وجعبة مليئة بالسهام ٠

قال فرج : « الوداع ! » .

فاجاب جوليان : « الى اللقاء ! .. فان نفسي تحدثني بأن هـــذا الموقع الحصين لن يبقى طويلا فى حوزة الفرسان . وقد تجىء أنت يا فرج، مرة أخرى ، الى هنا ، لا كأسير بل كفاتح منتصر ! »

وفى الطريق الذى سلكته القـــافلة قادمة الى طرطوس . انطلق الرفاق الاربعة ، عائدين الى طرابلس ..

* * *

كان خبر السطو على القافلة قد بلغ مسامع الســكان والحكام فى طرابلس ، فقلقت صافية بنت عمـــار على مصير زوجها ، وباتت ترقب الاخبار مضطربة تنتابها الهواجس . واذا بها تفاجأ ذات صباح بعودة فرج ورفاقه الثلاثة سالمين . فقص الرجل على الناس ما حدث له ، وكيف أن صديقه جوليان كالا ـ وكلهم يعرفونه ـ أنقذه من الاسروسهل له سبيل الهرب . وروى لحكام المدينة مارآه فى داخل القلعة ، ووصف لهمالكنوز التى يحتفظ بها الفرسان فى مخابىء تحت الارض ، فى حراسة جوليان الذى فتح له أبواب المخابىء واطلعه على ما تحويه الصـناديق المصفحة بالحديد من ثروة هائلة .

وكانت الاستعدادات قائمةعلىقدم وساق ، فى كل مكان ، لمواصلة الهجوم على المواقع الباقية فىقبضة الافرنج ، وكانتسنة ١٢٩١ للميلاد الموافقة لسنة ٦٩٠ هجرية ، السنة الفاصلة فى ذلك الصراع الرهيب الذى دام أكثر من مائة ســنة ، بين المسلمين والصليبيين فى الشرق العربى .

فى تلك السنة ، سقطت مدينة عكاء بفلسطين ، ومدينة عتليت على مقربة منها ، ومدينـه صيدا بلبنان ، ولم يبق فى النهـاية غير طرطوس فى الشمال !.

فصدر الامر من الملك الاشرف خليل ، فى صـــيف سنة ١٢٩١ ، بمهاجمة المدينة وانتزاعها منفرسان الهيكلبالقوة ، اذا رفضوا تسليمها بدون قتال .

أعد القائد علم الدين سنجر الشــجاعى عدته لتنفيذ الامر الذى تلقاه من السلطان بالقاهرة . وطلب النجدة من الامراء والاقيـــال فى سورية ، فلبوا نداءه ، وكانت طرابلس فى مقدمة الملبين .

تطوع فرج بن جابر للقتال وفعل مثله الرفاق الثلاثة الذين نجوا معه من الاسر بعد حادث القافلة فى العام السابق . واعتبر الاربعـــة أن لهم على فرسان الهيكل ثأرا لابد من أخذه .

طوق علم الدين المدينة المنيعة بقواته ، وضيق عليهـــا الخناق ، ووجه الى الفرسان انذارا بالتسليم ، حقنا للدماء .

خيرهم بين أن يحكموا السلاح بينهم وبينه ، أو أن ينســحبوا

من المدينة ، ويخلوا أسوارها وحصونها ، ويرحلوا بطريق البحـــر الى حيث يشاءون ، فيحمل كل منهم معه سلاحه وماله الخاص ، وأعطاهم الامان على حياتهم ، ولكنه اشترط عليهم أن يتركوا معدات الدفاع حيث هى ، ويتخلوا عن كنوزهم المكدسة فى دهاليز القلعة ٠

وجاءه الـرد على انذاره قبل نهـاية الموعد الذى حدده ٠٠ « جمعية فرسان الهيكل تقبل الشروط التى ذكرها القائد علم الدين الشجاعى لتسليم مدينة طرطوس ٠ »

وفى الوقت الذى فتحتفيه أبواب الاسواروبدأت قوات المحاصرين تجتازها وتنتشر فى الحارات والازقة متجهة الى الابراج والقلعة ، كانت السفن الخفيفة والزوارقالواسعة ، تخرج من المرفأ ناشرة قلاعها،أومدفوعة بقوة المجاديف ، تحمـل أسر الفرسان ورجالهـا ، ووجهتها جزيرة أرواد القريبة من الساحل ٠٠

وتسلم الجيش الفاتح الاسوار والابراج والقلعة ومحتوياتها جميعا ولم يلجأ أحد من الجانبين الى استخدام السلاح ٠ ولكنه اتضح للفاتحين بعد رحيل الفرسان ، وبعد ان فتحوا الصناديق المخبأة فى أقبيةالقلعة ان هذه الصناديق خالية من الكنوز !

لم يكن فى المينـاء غير بضعـة مراكب صغيرة وزوارق الصـيد ، فاستقلها فريق من المتطوعين وانطلقوا بها على اليم يطاردون الهـاربين ، وصدرت اليهم الاوامر بألا يعتدوا على أحد ، ولا يمنعوا أحدا من مواصلة السير الى أرواد ، وأن يكتفوا بالاستيلاء على الكنوز اذا عثروا عليهـــــا فى احدى السفن ٠

وكان فرج بن جابر بين المطاردين ! ٠

بحث فى القلعة عن صديقه جوليان وعن زوجته فلم يجدهمـا ٠ وعلم أنهما رحلا مع من رحل ٠ وأيقن أن صديقه لابد أن يكون قد اتخذ التدابير اللازمة لتهريب الكنوز ، قبل دخول الجيش الى المدينة ٠

لم يخطىء ظنه : فقد لحق المطاردون بفريق من الهاربين ٠ وشاهد فرج صديقه الافرنجي فى مركب شراعى يتقدم ببطء ٠ فاتجه اليـــه بزورقه ٠ وأدرك جوليان ان محاولته لانقاذ الكنوز قد فشلت ٠ فأمـــر الرجال الذين معه بأن يلقوا حمولة المركب فى البحر ٠

وأمام أنظار فرج بن جابر ورجاله ، تساقطت الكنوز قطعة بعـــد أخرى فابتلعتها المياه ٠ ولما أصبح فرج على متناول الصوت من صديقه ، صاح جوليان قائلا :

– يا فرج ! ٠٠ فى طرطوس أنقذتك من الاسر عملا بواجب الوفاء ولم أكن حارسا عليك ٠ أما الآن ، فاننى أقوم بواجب الوفاء ، تجـــاه فرسان الهيكل ، لاننى كنت الحارس المؤتمن على كنوزهم ٠ فلن أدعها تصل الى أيديكم !

ولما انتهى رجاله من تنفيذ أمره ، توجه جوليان الى مؤخرةالمركب وخاطب صديقه مرة أخرى قائلا :

ـ فى هذه المرة ، الوداع ! .. فلا لقاء بيننا بعد اليوم !

وقفز الى البحر فطوته الامواج !

***

تبعثرت الكنوز وتفرقت ..

فقد استولى الفاتحون على بعضها ، وهو ما تركه جوليان فى صناديق القلعة ...

وتمكن الفرسان من أخذجزء آخر فوصلوا به الى اروادحيث استقروا بضعة أعوام ....

أما الجزء الثالث ، وهو الاهم ، فقد أغرقه حارسه وأغرق نفسه معه !

اما فرج بن جابر ، فقد أسف على ما بدر من صديقه ، وعلى انتحاره غرقا على تلك الصورة المثيرة . فعرض على زوجته ايما أن تعود معـــه الى طرابلس ، لتعيش معززة مكرمة ، تحت سقف بيته ، وفى رفقة زوجته؛ صديقتها صافية .

ووافقت المرأة على ما اقترحه عليها صديق زوجها ، وزوج صديقتها . فانتقلت فى عرض البحر من المركب الذى انتحر منه جوليان ، الى الزورق الذى يقوده فرج ..

وفى طرابلس ، عاش الثلاثة فى جو من التفاهم والمحبة والوفاء ، وظلوا يذكرون الراحل العزيز ، ويترحمون عليه ، ويقرون أنه اســتمع الى صوت الواجب مرتين : « يوم أنقذ صــديقه من الاسر ، ويوم أراد أن ينقذ الكنوز التى كانت أمانة فى عنقه » ..

المعقل الأخير

بفضل الوحدة بين سورية ومصر ، هزم جيشهما المشترك جحافل المغول ، وحرر الجيوب الافرنجية الباقية من الغزو الصليبى ، وآخرها جزيرة « أرواد » فاستوطنتها أسر مصرية شامية منذ قرون وهذه قصتها

سكان مدينة طرطوس على الساحل السورى ، فى غمرة صاخبة من الفرح والمرح .. أهازيج الرجال وزغاريد النساء تملأ الفضاء . النيران موقدة على سطوح المنازل وفوق صخور الشاطىء ، تحديا للعدو الرابض فى معقله البحرى تجاه المدينة ، وانذارا له بأن ساعته الاخيرة قد دنت !

هناك ، فى جزيرة ارواد الصغيرة المنيعة ، على مرأى العين منهم ، وعلى مسافة فرسخ أو أقل من مدينتهم ، يعتصم بضعة آلاف من فرسان جمعية الهيكل الصليبيين ، الاقوياء الاشداء الشجعان ، الذين نازلهم فى الميادين فرسان سوريون ومصريون أقوياء أشداء شجعان مثلهم ، فتغلبوا عليهم ، وأقصوهم عن معاقل أخرى كانت فى حوزتهم على الساحل وفى سفوح الجبال ، فانتقلت فلولهم الى ذلك المعقل الاخير ، الى الجزيرة الصخريه ، حيث كدسوا أموالهم وكنوزهم فى سراديبها العميقة ، واستعدوا للدفاع عنها فى الابراج والاسوار المحيطة بها ، فجعلوا من كل حجر قلعة ، ومن كل فجوة مكمنا ، وطوقوا الجزيرة بسلاسل حديدية غليظة ، وأعدوا أسرابا من المراكب والزوارق الخفيفة ، تصلح للقتال ، وتصلح للصيد ، وتصلح للفرار اذا ما دارت الدائرة على المدافعين .. !

البيوت متراصة متلاصقة ، ومخازن الاسلحة والبارود محفورة فى الصخر ، والماء العذب يتفجر من عين غزيرة فى قاع البحر ، ويستخرج منها بجهاز معقد من صنع الفينيقيين فى سالف العصور . وقد توافد الغزاة على الجزيرة العجيبة فاحتلها الفراعنة ، والاغريق ، والرومان ، والبطالسة ، والبيزنطيون ، وأخذها معاوية بن أبى سفيان فأصبحت عربية !

ولما طغت على سوريا الموجة الصليبيه الاولى ، فى القرن الحادى عشر للميلاد ، الموافق للقرن الخامس للهجرة نزل فرسان الهيكل فى الجزيرة وأعادوا أرواد الى ما كانت عليه من قوة ومناعة .

ومرت الاعوام بالعشرات ، وتلاحقت الموجات الصليبية وقابلتها موجات عربية فخسر الافرنج معاقلهم الاولى على يد الملك الناصر صلاح الدين الايوبى ، وانتزع منهم السلاطين المماليك معاقلهم الاخيرة ، يوم وحدوا القطرين المصرى والسورى فى أواخر القرن الميلادى الثالث عشر ، والهجرى السابع .

وفى سنة ١٢٩١للميلاد ، الموافقة سنة ٦٩١ هجرية ، سقطت المدن الساحلية الواحدة بعد الاخرى : عكا ، حيفا ، صور ، صيدا ، بيروت

وأخيرا طرطوس في الشمال • وسقطت في آن واحد مدن أخرى في داخل البلاد • وانسحب الافرنج الى قبرص ، وقبع فرسان الهيكل في أرواد

وبقي في سورية فريق من الجنود المصريين الذين أصيبوا في المعارك المتواليـــة ، ورأى الملك الاشرف صلاح الدين خليل ، الـذي قاد الجيش السوري المصري في تلك الحملة الموفقة ، أن يقيم أولئك الجنود جميعهم في مكان واحد ، فاختاروا مدينة طرطوس ، حيث ضمن لهم السلطان مايكفيهم من مرتبات وجرايات • فاستقروا في موطنهم الجديد ولحق بهم من مصر أهل وأقارب ، وتزوج كثيرون منهم فتيات سوريات ، فتكونت من تلك المجموعة نحو مائة أسرة عصرية سورية ، عاشت في سلام واطمئنان ، وفي وئام تام مع سكان المدينة الاصليين •

واختار أولئك المصريون النازحون عن وطنهم بوادي النيــل ، الى شطره الشمالي بسورية ، واحدا منهم ، أطلقوا عليه لقب « شيخ البلد » وعهدوا اليه بأن يسهر على مصالحهم ، ويعنى بأمورهم ، ويحل مشكلاتهم، ويقضي في خلافاتهم ، لكي تبقى أواصر الالفة والمحبة قائمة بينهم • وكان الرجل الذي اختاروه لهذه المهمة جنديا خاض عشرات المعارك ، وفقـــد فيها ذراعيه ، ورحل الى طرطوس مع ابنه الوحيد •

وكان اسمه « محمود عبد العاطي » فسماه الطرطوسيون « محمود المصري » وتزوج ابنه « حامد المصري » الفتاة السورية « خولة » بنت « ابراهيم البدري » من أثرياء حماة ، له في طرطوس أرض ومتـــاجر • ومنذ ذلك الوقت ، كثر في تلك الجهـــات اطلاق لقب « المصري » على الجنود الذين استوطنوا سورية •

وما كادت الدولة المصرية السورية المتحدة تطمئن على كيانها من ناحية الغرب ، بالقضاء على الجيوب الافرنجية على طول الساحل السوري حتى فوجئت بخطر داهم جاء من الشرق : ذلك هو الغزو المغولي الرهيب الذي تجسم في جيش جرار يبلغ عدده مئات الآلاف من الفرسان ، يقوده الملك غازان خان بنفسه ، يقتل ويحرق ويخرب ويسلب •

خطر يفوق الخطر الصليبي الذي تخلصت سورية منه بفضـــل اتحادها مع مصر ، والذي أدرك المسئولون عن كيان الدولة وســـلامة الشعبين ، أن دفعه عن البلاد لن يكون مضمونا الا بصيانة الاتحـــاد ، وبمواجهة العدو صفا واحدا ، وبجيش واحد !

وصل المغول الى مشارف سورية ، ثم توغلوا في شمالها ، ولحق بهم ملوك أرمينيا وبلاد الكرج ، وانضم اليهم فرسان الهيكل بقيادة رئيسهم جاك دي مولي ، طلبا للثأر ، وعلى أمل أن يسترجعوا بعض ما انتزع منهم العرب من معاقل •

في هذه المرة ، زحف من مصر لملاقاة العدو السلطان الشاب محمد ابن قلاوون الملقب بالملك الناصر ، ووافاه المتطوعون من كل فج وصوب • ولكن الحظ خانه في الجولة الاولى ، فهزم في معركة حمص ، سنة ١٣٠٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٧٠٠ هجرية • فاضطر الى الارتداد لاعادة تنظيم الصفوف ، والاستعداد للجولة التالية •

وفي معركة حمص ، التي اشترك فيها فريق من سكان طرطوس السوريين والمصريين ، أصيب حامد المصرى بجراح بليغة اقتضت بتر ذراعيه ، فأصبح مثل أبيه محمود المصرى ، بدون ذراعين ، ولكنه تمكن فى حومة القتال من تسديد طعنة صائبة الى غريمة ، وهو من فرسان الهيكل المشهورين بشدة البأس ، فأصابه فى فخذه اصابة سببت له عاهة مستديمة ، عرف ذلك الفارس بسببها ، منذ ذلك الوقت ، باسم « لويس أبو رجل قصيرة » واقسم حامد ورفاقه على أن يثأروا لانفسهم ولوطنهم ..

وواصل غازان خان الزحف على دمشق ، فصده السكان عنها . ودارت فى البلاد معارك متواصلة ، فانتقل الحظ من صف الى صف ، الى أن ازفت الساعة التى حددها الملك الناصر محمد بن قلاوون لتوجيه الضربه القاضية الى العدو الغريب ...

وفى سنة ١٣٠٣ للميلاد ، الموافقة لسـنة ٧٠٣ هجرية ، وقعت معركة « مرج الصفر » على مقربة من دمشق ، فهزم العرب جيوش المغول مجتمعة ، ومزقوا شملها ، وقتلوا عشرات الالوف وساقوا امامهم الاسرى ، واستولوا على كنوز غازان الذى فر من الميدان لا يلوى على شيء !

لم يشترك أهل طرطوس فى تلك المعركة ، ولكنهم أقاموا الافراح يوم بلغهم خبرها ، وهو الخبر الذى من أجله أطلق رجالهم الاهازيج ، وأطلقت نساؤهم الزغاريد ، وراحوا يوقدون النيران على سطوح المنازل وفوق صخور الشاطىء ، ويتحدون العـدو الرابض فى معقله البحرى تجاه المدينة ، فى جزيرة أرواد !

وكان السلطان ، كلما الحوا عليه بأن يوافيهم بالجنود والسفن ، لغزو الجزيرة العاصية ، يرد عليهم بأن خطر المغول يجب أن يدفع أولا ، ثم ينظر فى مصير أرواد والمعتصمين فيها من فرسان الهيكل ؟

وبعد ماهزم المغول ، وتشتت شمل جيوشهم ، وهرب ملكهم عائدا من حيث أتى ، وسبقه فى الهرب ملوك أرمينيا وبلاد الكرج ، عــاد الفرسان الصليبيون الى معقلهم الاخير فى جزيرتهم الحصينة تجاه طرطوس

عنـد ذلك قام وفد من المدينـة ، على رأسـه حامد المصرى وزوجته خولة ، قاصدا الى دمشق ، لتهنئة الملك الناصر على نصره الباهر ، والعودة الى الالحاح مرة أخرى ، لحمله على مهاجمة الجزيرة ، اجابة لرغبة السكان المتشوقين الى منازلة الفرسان فى عقر دارهم ...

وكان السلطان قد أعد العدة للعمل الحاسم ، قبل أن يصل الوفد الى دمشق .

فقال للطرطوسيين القادمين اليه :

ـ ما نسيت يوما واحدا ما تطلبونه منى ، فان أمنيتكم هى أمنيتى ، وارواد هى الشوكة الاخيرة فى جسم البلاد الشامية ، ولابد من اقتلاعها الآن !

ومشى الملك الناصر بنفسه على رأس الحملة ·

ومن ميناء طرطوس ، انطلقت مجموعة من السفن ، حاملة بضعة آلاف من الرماة ، وحملة الفؤوس ؛ ومعدات الحصار على أنواعها وشقت سبيلها في اليم على قرع الطبول ، تتصاعد منها اناشيد الحرب ، ممزوجة باهازيج الطرطوسيين وزغاريد نسائهم !

لم يفاجأ فرسان الهيكل بهذا الهجوم العربي · فقد كانوا ينتظرونه بين عشية وصباح ، ويراقبون الشاطيء من فوق أسوارهم وأبراجهم · ويعدون العدة للدفاع عن الرقعة الاخيرة الباقية لهم من الدولة الصليبية الكبيرة ·

كان الصراع عنيفا ، والقتال مريرا ·

فقد اضطر العرب الى ضرب الحصار على الجزيرة من البحر يومين متواليين · وحطموا السلاسل الحديدية ، وتسلقوا الاسوار والابراج ؛ وتمكنوا من فتح ثغرات فيها تدفقوا منها الى داخل البلدة ، حيث استمر القتال يوما كاملا ، في الحواري والازقة ، في حجـــرات البيوت وعلى سطوحها ، في السراديب المظلمة وبين الصخور وعلى صفحة الماء !

كان كل واحد من سكان طرطوس ، المصريين والسوريين ، الذين رافقوا الحملة وساهموا في القتال ، يبحث عن عدو يعرفه ، أو غريم يطلب الثار منه ، أو بطل سمع عنه في الحروب السابقة ، لكي ينازله في ذلك اليوم الرهيب ، الذي اختتمت به الحروب الصليبية في الديار الشامية ·

ولم يتخلف محمود المصري وابنه حامد عن اللحاق برفاقهما ، فكانا يستنهضان الهمم بصوتهما الجهوري ، ويستعينان بصيحات الحرب عن الذراعين المفقودتين !

وكانت جولة بنت ابراهيم البدري تمشي معهما جنبا الى جنب ، وفي يدها سيف مسلول !

وعلى باب القلعة الوسطى ، حيث تجمع فريق من نخبة فرســـان الهيكل ، على صــــدورهم الدروع وعلى رؤوسهــــم الخوذات ، وفي أيديهم أسلحتهم الثقيلة ، تكدست الجثث ، وتضاعف الصياح ، وارتفعت انات الجرحى الذين داسهم المقاتلون بالاقدام !

وفجأة ، انطلقت كلمة واحدة من فم محمود وابنه حامد : « أبو رجل قصيرة ! »

ووثبت خولة على الرجل الذي افقد زوجها ذراعيه ، والــــذي كان يسند ظهره الى السور ، ويواجه بسيفه المهاجمين ··

والتحمت المرأة مع الفارس الافرنجي في مبارزة ما كان أحـــــد الناظرين يشك في أن الغلبة فيها للرجل ، لا للزوجة الساعية الى الثار لزوجها ، فأسرع اليها بعض رفاقها ليشدوا أزرها · ولكنها صاحت فيهم قائلة :

ـ دعوني معه وجها لوجه ! ٠٠ فليست هذه ذراع خولة ! ٠ بل ذراع حامد تقتص من الغريم !

وحدث ما لم يكن أحد يتوقع حدوثه !

ماكاد لويس يصحو من دهشته ، حتى كان سيف خولة ، الزوجة الغاضبة ، يخترق صدره لينفذ من ظهره ، فيلتوى طرفه على الصخر !

واندفع المهاجمون الى داخل القلعة ٠ وما غابت الشمس ، حتى كان النصر قد أصبح تاما كاملا ٠

قتل في المعركة أكثر من ألفين من فرســـان الهيكل ، وهرب فريق منهم بطريق البحر الى جزيرة قبرص ، حاملين معهم بعض تحفهم وكنوزهم وأموالهم ٠ وسلم الباقون ، فأخذ العـرب في ذلك اليوم خمسمائة أسير نقلوهم الى طرطوس ، وافتدوا بهم فيما بعد مثل عـــددهم من الاسرى العرب فى قبرص ٠

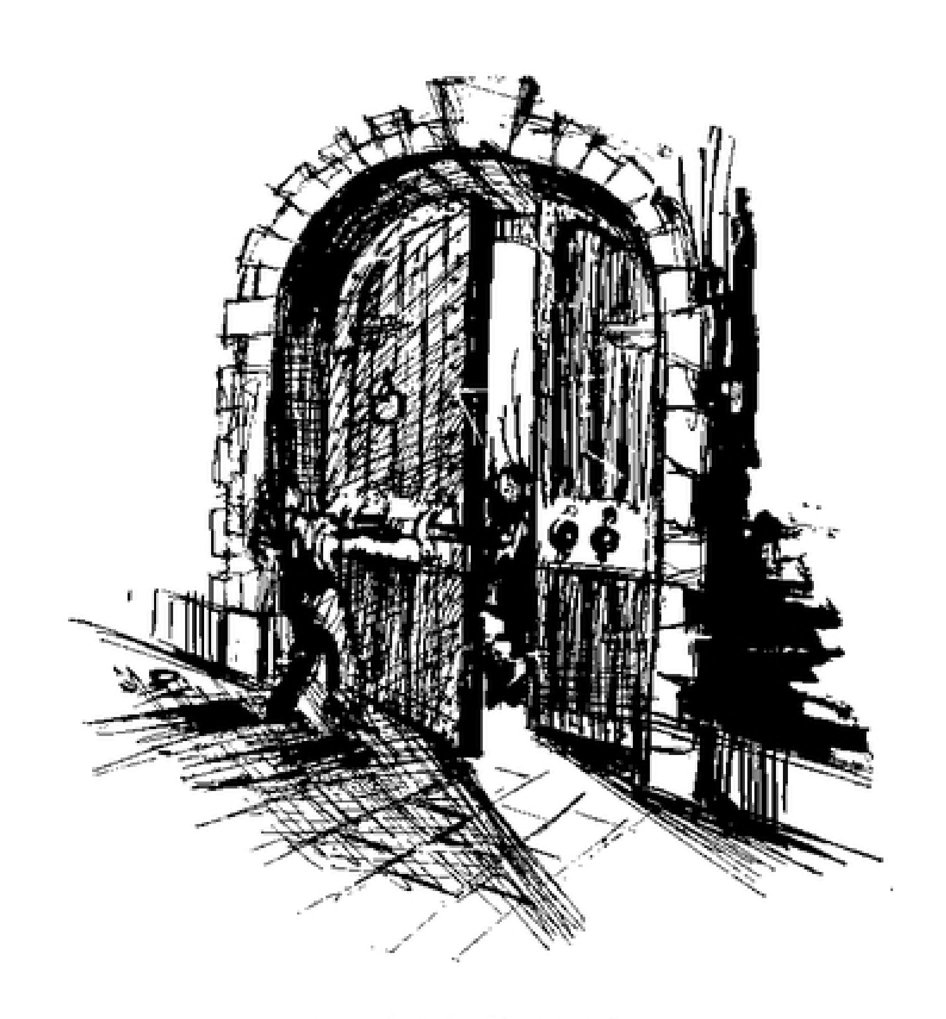
وتم للملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو فى مطلع العشرين من العمر القضاء على آخر جيب من الجيوب الافرنجية في سورية ٠٠

وذاق البلدان ، مصر وســورية ، فى ظل الوحدة الوثيقة ، طعم الراحه والاطمئنـــان مدة طويلة ٠ فقــد حرر جيشهمـا المشترك ، الديار الشامية من الافرنج الذين وفدوا من الغرب ، ومن المغول الذين وفدوا من الشرق ٠٠

وانتقــل الى جزيرة أرواد كل من أراد الانتقـال اليهـا من ســكان طرسوس ٠ وكان أول من استوطنها منهم ، محمود المصرى ، وابنه حامد وزوجته خولة ، وأبوها ابراهيم البـدرى ، وأسر مصرية شـامية أخرى وهى التى تحول أفرادها ، مع الزمن الى بحارة وصيادين ٠ ومن سلالة أولئك الاجداد ، بحارة أرواد اليوم وصيادوها !

غزوة قبرص

تحدى الملك السلطان ، فقبل السلطان التحدى
وأسر الملك وأذله حتى افتداه ذووه بالمـــال



فتحت أمينة باب الحصن
فدخل منه الجيش المصرى

ـ القرصان ! القرصان ! ..

دوت أصوات الاستغاثة في الليل البهيم ، وانطلقت الزوارق تنقل الرجال بين البر والسفن الراسية فى ثغر الاسكندرية ، ولمعت نصال السيوف فى الظلام على ضوء المشاعل وراح كل من طرقت أذنيه صيحات المستغثين يلبى النداء وينضم الى المدافعين ، وقد حمل ما وصلت اليه يده من أدوات القتال !

لم تكن المرة الاولى التى هاجم فيها قراصنة الافرنج سواحل مصر وثغورها . فقد جرأتهم استكانه الحكام وقعودهم عن مقابلة الهجوم بمثله ، واهمالهم فى حراسة منافذ الدولة ، على مواصلة الاعتداء ،مما جعلهم يعتقدون أن أرض مصر وأهلها وأموالها لقمة سائغة ونهب مباح !

وكان هجومهم على ميناء الاسكندرية ، فى تلك الليلة من ليالى الشتاء الباردة المظلمة ـ سنة ٨٢٧ للهجرة ، الموافقة سنة ١٤٢٤ للميلاد ـ بالغا مبلغا عظيما من القسوة والاستهتار . فقد اضرموا النار فى السفن والزوارق ، وأمعنوا فى القتل والضرب والسلب ، وعادوا على أعقابهم يجرون وراءهم احدى سفن السلطان محملة بالغنائم !

عبثا حاول بحارة السفينة ومن انضم اليهم من السكان دفع الاذى وطرد المهاجمين . وعبثا رفعت «أمينة» بنت علاء الدين صوتها فى حث المدافعين على الاستبسال فى القتال . وعبثا انتزعت الفتاة من أحد البحارة سيفه الملطخ بالدم ، ووثبت الى المقدمة تضرب المثل الصالح فى الشجاعة والاقدام . فقد غلب المصريون على أمرهم ، وكانت أمينة بين السبايا ، عند ما ابتعد القراصنة عن الثغر فائزين غانمين !

وجرح أبوها « علاء الدين العنتابى » فى القتال . وكان من المماليك، عهد اليه الملك «الأشرف سيف‌الدين برسباى» ـ الجالس على عرش مصرمنذ عام ٨٢٥ للهجرة الموافق لعام ١٤٢٢ للميلاد ـ فى الاشراف على تسليح الموانى فشاءت الاقدار أن يكون فى الاسكندرية ليلة باغتها القراصنة بهجومهم ، وان تكون ابنته ووحيدته أمينة معه فى رحلته . فاشتركت معه فى الدفاع حتى جرح ، فوقع ووقعت معه الفتاة فى الاسر ..

ثار ثائر الملك الأشرف برسباى عندما بلغه خبر الاعتداء واستيلاء القراصنة على تلك السفينة بمن فيها من قواد وبحارة . فعزم على ضربهم ضربة قاضية ، وعول على مهاجمتهم بدوره فى المعاقل التى يلجأون اليها ويعتصمون فيها . وكانت جزيرة قبرس اقرب معقل لهم وكانت أسرة

« لوسينيان » المالكة تحميهم وتمدهم بالمال والمراكب والاسلحة والذخائر وكان الملك الجالس على عرش قبرص يدعى « جانوس – أو يوحنا – دى لوسينيان » من سلالة ملوك الصليبيين الفرنسيين ، الذين انكمشوا في تلك الجزيرة بعد أن ضاع ملكهم فى سورية والارض المقدسة ، فقرر الملك الاشرف أن يغزوها ليقضى على آخر مملكة أفرنجية فى الشرق انتقاما لنفسه ولرعاياه ، وجهز ثلاثة أساطيل سارت الى الجزيرة فى ثلاث حملات بحرية ، خرجت فيها المراكب المثقلة بالجنود ومعدات القتال من ثغور مصر وسورية ولبنان ، وكانت آخر حملة بقيادة السلطان نفسه فى شهر رمضان سنة ٨٢٩ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٤٢٦ للميلاد ·

احدقت المراكب المصرية بثغور قبرس واحدا بعد واحد ، فاحرقت فيها كل ما كان قابلا للالتهاب · ونزل جنود برسباى الى البر فى كل ثغر تحميه قلعةأو تكتنفه اسوار ، فهدموا الاسوار واقتحموا القلاع !

وحدث فى حصن « ليماسول » حادث يقرب من المعجزة ! فقدفتحت ابواب الحصن فجاه وقبل ان يبدأ الجيش المحاصر بالهجوم ، بقيادة الضابط «خير الدين السروجي » · · فاندفع الجنود المصريون الى داخل الحصن ، واذا بهم فى ساحة واسعة لا جند فيها ولا سلاح يبدو فى أرجائها ، واذا بالابواب تقفل من جديد ، فيصبح المهاجمون محصورين فى تلك الساحة كالفيران فى مصيدة !

كانت خدعة عمد اليها المدافعون عن الحصن فنجحت · وشعر قائد المصريين بأن جيشه هالك لا محالة وانطلقت السهام من فوق الاسوارتنهمر على رجاله كالمطر ، وسيول من الزيت الملتهب تتدفق عليهم من النوافذ ، وكتل من الصوف المشتعل تلقى على رءوسهم ، وهم عاجزون عن تجنب تلك القذائف والاحتماء منها ، فساد الهرج والمرج ، ودب الذعر بين الرجال · وأوشك قائدهم أن يأمرهمبرفع الأيدى وطلب التسليم · ولكن صوتا سماويا عذبا ارتفع فى ركن من اركان الساحه بين صيحات الجنود المنكرة :

– من هنا ، من هنا ، يارجال خير الدين ! لقد وقع الاعداء فى الفخ الذى نصبوه لكم !

وصحبت الصوت السماوى العذب قعقة سلاسل ، واذا بأحد الابواب الحديدية المؤدية الى قاعات الحصن الداخلية يفتح على مصراعيه ، وتبدو منه فتاة خيل لجنود برسباى انها حورية نفرت من جنان الخلد الى ذلك الحصن المظلم ، لانقاذهم فى ساعة الشدة واليأس ! تلك هىء أمينة » بنت علاء الدين ، كان القبارسة قد احتفظوا بها سجينة مع أبيها ورفاقه فى حصن ليماسول ، على أمل ان يفتديهم الملك الاشرف بالمال · فمات الاب متأثرا بجراحه وباتت الفتاة ترقب ساعة الفرج ، الى أن وقع ما وقع ، فتمكنت من مغافلة الحراس اثناء القتال ، مع خمسة من الاسرى المصريين ، عاونوها على فتح ذلك الباب فاندفع خير الدين ورجاله الى أنحاء الحصن ، وتم لهم الاستيلاء عليه ، والقضاء على حاميته ، وانقاذ المصريين المسجونين فيه !

وكان الملك الاشرف ، فى خلال ذلك الحادث الرائع ، يقتحم قصر الملك جانوس دى لوسينيان ، ويأخذه أسيرا مع حاشيته واركان حربه ، ثم عاد بأساطيله الى مصر تنوء باحمالها ، وتتبعها البقية الباقية من مراكب قبرس ، وفيها الاسلاب التى لا تحصى ولا تعد !

واستقبلت مصر ملكها الفـــاتح وجيشه المظفر بمظاهر الترحيب والفرح ، واقيمت حفله عرض عسكرى فى « قلعة الجبل » بالقاهرة ذهب اليها الملك الاشرف أبو السعادات سيف الدين برسباى الغازى ، ممتطيا جوادا مطهما يتمايل فى حلة مزينة بالذهب والفضة ، وخلفه الملك القبرسى الاسير مربوطا بالحبال على ظهر بغلة حمراء ، وقافلة لانهاية لها من الجمال المصرية والحمير القبرسية تحمـــل الغنائم ويقودها رعايا الملك اذلاء فى الاغلال يرسفون !

وكان ذلك اليوم من أيام مصر المشهودة فى التاريخ !

***

قال الملك الاشرف :

ـ لقد أبليت يا أمينة فى القتال أحسن بلاء ، وطوقت عنق الجيش بجميل لن ينساه لك أبو السعادات برسباى . وانت من الآن فصاعدا من نزيلات قصرى ، تحلين فيه معززة مكرمة ، تأمرين فلا يرد لك أمر ، وترغبين فلا يحول دون تحقيق رغبتك حائل !

فاجابت بنت علاء الدين العنتابى :

ان أعز أمنية عند أمينة ياسيد الامصار وفاتـــح الاقطار ، أن تظل السعادة مخيمة على مصر فى ظل ابى السعادات !

والتفت برسباى الى خير الدين السروجى ، قائد الجيش المنتصر فى ليماسول ، وقال :

ـ وانت ياخير الدين ، ستكون من الآن رئيس الحرس فى القصر ، وقائد الفرسان فى حومة الوغى ، اذا ما اضطرتنـــا الظروف الى خوض غماره فى مستقبل الايام . واذا كانت لك أمنيه فافصح عنها ، لكى نحققها لك باذن الله !

فأجاب خير الدين :

ـ ان امنيتى ايها الملك هى أمنية هذه الفتاة الشجاعة ، التى لولاها لما انتصر خير الدين فى ذلك الحصن القبرسى المنيع .. ولكن الذى لم تقله لك أمينة ، يامولاى ، هو ان لنا ـ نحن الاثنين ـ رغبة أخرى ، مادمنا سنعيش فى هذا القصر العامر !

فقاطعه برسباى قائلا :

ـ لقد أدركت الرغبة التى تخالج صدريكما يابنى : لقد اصبحت أمينة

يتيمة بعد موت أبيها ، فكن لها زوجا ، وليكن الهناء رفيق حياتيكما ! أليست هذه هى الرغبة التى اخفتها أمينة عنى ؟

فاندفع الشاب والفتاة نحو السلطان ، وتناول كل منهما احدى يديه وغمراها بالقبلات !

***

ظل الملك جانوس دى لوسينيان أسيرا فى قلعة الجبل بضعة شهور، الى أن تقدم تجار البندقية فانقذوه من الاسر مقابل فدية دفعوها للملك الاشرف ، بلغت مائتى ألف دينار !

وبعد أن أقام الملك المعتوق أسابيع فى ضيافة قاهره ، وقع على وثيقه اعترف فيها بسيادة مصر على الجزيرة التى ظل ملوكها يدفعون الجزية لمصر حتى نهاية حكم المماليك .

نساء في المعركة

تولت امرأتان قيادة رفيقاتها عند كل من الطرفين المتحاربين
وفاجأت كل منهما أولئك الرفيقات بما لم يخطر لهن ببال !



رسم قديم لجزيرة رودس

في حجرة ضيقة ، مجاورة لحجرة الحرس ، عند مدخل الحصن القديم المتداعي ، الذى تحول بأمر الحاكم الى مربط للخيل ومخزن للعلف ، جلس عشرون أو أكثر من الاسرى يتناولون طعام العشاء المكون من الخبز الجاف والزيتون . وكانوا يعلمون أنهم في الغد القريب لن يذوقوا الزيتون وقد لا يذوقون الخبز . فالمؤن قد شحت في الجزيرة المحاصرة ، كما شح فيها البارود وتحطم الكثير من أدوات القتال . والاسرى لا يقلقون لهـــذا ولا يحزنون ، بل كانوا يرجون من صميم أفئدتهم أن ينفد الزاد وينفد البارود وتتحطم الأسلحة جميعا ، فان هذا وحده كفيل بأن يقنع الحاكم العنيد بأن كل أمل قد ضاع ، وبأنه لا بد من التسليم حقنا للدماء

وكان بين الاسرى ثلاث نساء : واحدة تلازم شيخا مسنا وتعنى بتلقيمه الطعام وتناديه « يا أبى » ، وأخرى في العقد الخامس من العمر ترمق بأنظار ملؤها الحنان المرأة الثالثة ، وهي ابنتها التى يبدو أنها في نحو الخامسة والعشرين

أما الباقون ، فانهم رجال ، بينهم الشيخ والكهل والشاب . والحديث يدور بينهم جميعا همسا وباللغة التركية ، وهي لغة قومهم . فان اولئك الاسرى من الاتراك ساقهم « فرسان القديس يوحنا » الى جزيرة رودس بعد معركة بحرية استولى فيها الفرسان على سفينة تركيه كان اولئك الاتراك على ظهرها ؟

وفى الجزيرة التى يملكها الفرسان ظل الاسرى أحرارا يتنقلون من مكان الى مكان داخل الاسوار ، على أن يذهبوا في الليل الى السجن الذى جعل مسكنا لهم في مربط الخيل

وفى تلك الليلة التى اجتمعوا فيها حول الخبز الجاف والزيتون ، كان حديثهم مشبعا بالأمل والرجاء .. فان الجزيرة قد حوصرت ، ونزل الجنود الاتراك على سواحلها ، وضربوا نطاقا حول العاصمة المحصنة ، وسوف يقتحمون اسوارها عنوة آجلا أو عاجلا ، ويعيـــدون الى الاسرى حريتهم ، ويسوقون أمامهم الفرسان الى الأسر بدورهم

ولكن ، أليس أمامهم واجب تفرضه عليهم قوميتهم ويفرضه عليهم دينهم نحو أولئك الذين يحاصرون الموقع الحصين ؟ نعم ، ان عليهم واجبا وهو أن يساهموا في اسقاط الحصن في نطاق قدرتهم وما أستطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهذا ما قرروا الاقدام عليه ...

وكانت النساء الثلاث أشد اندفاعا من الرجال في الحماسة والالحاح

وقالت المرأة الشابة في نهاية الحديث ، وهي تشير الى الجهة التي تكدس فيها علف الخيل أكواما :

ـ ليعمل كل منا مافي وسعه ، أما انا ، فانني سافاجئكم بشيء لا يخطر الآن ببالكم !

***

في تلك الليلة ذاتها ، وعلى مسافة قريبة من مربط الخيل ، في حجرة تشرف على ساحة فسيحه داخل دار واسعة الارجاء ، جلست سيدة حسناء في العقد الثالث من العمر ، تتسم ملامحهـا برباطة الجـأش والارادة الصارمة ، وحولها فريق من النساء ينظرون اليهـا نظرة احترام ممزوج بروح الطاعة والاستسلام ، ويوافقن على كل عبارة تصدر منها ، مرددات بلا انقطاع : « نعم ، ياسيدة برتا ! ٠٠ »

هي زوجة واحد من الفرسان اصحاب الجزيرة أصيب في بدء الحصار بسهم اخترق صدره ، وفاضت روحه بين يدي زوجته ، بعد أن جعلها تقسم ، وأصابعها متشابكة بأصابعه ، على أن تساهم مع نساء الجزيرة في الدفاع حتى الرمق الأخير ، وأن لا تدع ولديه الطفلين يقعان أسيرين في أيدي الجنود الأتراك ، وقد أقسمت « برتا » زوجة الفارس « كونراد » الالماني على ان تقاتل حتى تقتل ، وعلى أن تقتل ولديها اذا تعذر عليها أن تكفل لهما حياة حرة في مقبل الأيام ٠

وأقرتها النساء الاخريات على أن الواجب نحو الوطن والعشيرة ، يقضي عليهن جميعا بأن يخرجن الى الاسوار مع الرجال ، وألا تبقى امرأة واحدة في رودس قابعة في عقر دارها ، على حين الموت يحصـــد الآباء والازواج والابناء

وشكرتهن برتا على موقفهن النبيل ، وختمت حديثها قائلة وهي تشير الى الطفلين :

« لتعمل كل منا مافي وسعها ٠ أما أنا فانني سأفاجئكم بشيء لا يخطر الآن ببالكن ! »

***

مات السلطان العثماني سليم الاول في سنة ١٥٢٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢٦ للهجرة تاركا لابنه سليمان الثاني مهمة انجاز الفتوحات التي بدأ بها ، وفي مقدمتها فتح جزيرة رودس ، وضمها الى املاك الـــدولة الشاسعة ٠ وكان سليمان في الخامسة والعشرين من العمر لما خلف أباه على عرش آل عثمان ٠

راح السلطان الجديد يعد العدة لمهاجمة الجزيرة ، التي كان فرسان القديس يوحنا قد حصنوها وجلبوا اليها الامداد والمؤن والذخائر استعدادا لليوم العصيب الذي كانوا ينتظرونه ، وكان يقود الفرسان ويحكم الجزيرة في تلك المرحلة الحاسمة الشيخ « فيليبه دي ليل ادام » الذي دون اسمه ، ـ مثل خصمه « سليمان الثاني القانوني » ـ في سجل الخالدين ٠٠٠

أمر قائد الفرسان رجاله وسكان الجزيرة جميعا بالاعتصام داخل أسوار العاصمة « رودس » ، وهدم القرى الواقعة خارج الاسوار ، بما فيها من بيوت وكنائس ، وحرق مالا يمكن أخذه من محصولات الارض ، حتى لايترك لعدوه شيئا يفيده فى حصار المدينة ٠

واستعان بأشهر مهندسى العصر «مرتينانج» الفرنسى لتقوية الاسوار والأبراج بحجارة البيوت والكنائس التى هدمت ٠ وتمكن من حشد ستة آلاف مقاتل للدفاع عن المدينة فضلا على القادرين على حمل السلاح من السكان رجالا ونساء ٠

وفى السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٥٢٢ وصلت أمام الجزيرة عمارة عثمانية قوامها أربعمائة سفينة ، وفى الثامن والعشرين من شهر يوليو ، وصل السلطان سليمان نفسه ، وكان الجيش العثمانى مؤلفا من مائة وخمسين ألف رجل ، ولم يكن ذلك العددبكثير ، فى رأيى السلطان بالنظر الى مركز الجزيرة ، ومناعة أسوار العاصمة ٠

ونزل الجيش الى الساحل ، وطوقت المدينة من البر ومن البحر فى آن معا ٠

ونشب القتال فى الرابع من شهر سبتمبر ٠ وظل حامى الوطيس أربعة شهور كاملة ، فاستبسل الفرسان والسكان فى الدفاع ، واستأسد العثمانيون فى الهجوم ، وأقدم الفريقان على سلسلة من أعمال البطولة أقرب الى الاساطير !

* * *

رسم الأسرى العثمانيون خطتهم ، ووضعوها بلا ابطاء فى موضع التنفيذ ، والخطة ترمى الى تخريب ، ما يمكن تخريبه ، وتعطيل ما يمكن تعطيله ، واخفاء ما يمكن اخفاؤه من وسائل الدفاع وأدوات القتال ٠ وانصرف كل منهم ، الرجال والنساء ، الى القيام بالمهمة التى ألقيت على عاتقه ، فاختفت تباعا كميات من الاسلحة ، وعطلت كميات أخرى ، وتسرب التخريب الى ألاجهزة المنصوبه على الاسوار بل والى الاسوار نفسها ، وتعذر على الفرسان تعليل ذلك كله أو معرفة أسبابه !!

أما الفتاة التى وعدت رفاقها بأنها ستفاجئهم بشىء لا يخطر ببالهم ، فقد اعتزمت اضرام النار فى أكوام العلف ، بعد أن رتبتها خفية بطريقة تؤدى الى امتداد اللهب واتصاله بأحد مستودعات البارود ، وهو واقع خلف جدران المعتقل ، وكانت الفتاة قد ادركت مبلغ الخطأ الذى وقع فيه الفرسان بوضع علف الخيل على مقربة من مخزن للبارود ، وعولت على استغلال هذا الخطأ ، باضرام النار فى العلف ونسف البارود وحرمان الفرسان استعماله فى الدفاع ، ولكن الحرس كانوا يقظين ، لسوء حظها ٠ فقد ادركوها قبل أن تنجز مهمتها ، وتمكنوا من اخماد النار ، وقبضوا على الفتاة ثم على رفاقها جميعا ، وأعدموهم دفعة واحدة بعد أن أذاقوهم أبشع ألوان العذاب ٠٠٠

واستطاعت أم الفتاة أن تفلت ، ونجت بنفسها ، مع واحد من

الاسرى ، وبالرغم مما حل بالاخريات فقد قرر الاثنان مواصلة أعمال التخريب ، ومحاولة اخطار الجيش المحاصر بأن حالة المحصورين تدعوا الى اليأس ، وأن على المحاصرين أن يشددوا الحصار ولا يقبلوا مهادنة ٠

وفي ظلام الليل ، جعلت المرأة والرجل يرشقان سهاما من فوق الأسوار ناحية العثمانيين ، وقد ربطا في كل سهم منها ورقة كتب عليها أن البارود قد نفد عند الفرسان أو كاد ، وأن وسائل دفاعهم لا تساعدهم على الصمود أكثر من أيام معدودات ٠٠٠

ولم يكن حظ المرأة والرجل أحسن من حظ رفاقهما الاخرين ، فقد فاجأهما الحراس أيضا ، وعثروا على السهام والأوراق المخطوطة ، وكان ذلك الدليل كافيا لتعذيب الاسيرين وقتلهما شر قتلة ٠

ولحقت المرأة الثالثة بالاثنتين اللتين اعدمتا قبلها ، ولحق الرجل بالرفاق الذين سبقوه ٠

***

وفي المرحله الاخيرة من مراحل ذلك الحصار الرهيب ، نفذت نساء رودس أيضا ماكن قد اعتزمنــه بتحريض من برتا زوجة كونراد الالماني فقد خرجن من بيوتهن ونزلن الى الميدان ، يشاركن الرجال في الدفاع عن الاسوار والقاء الزيت المغلي من الابراج على المحاصرين واصلاح الاسلحة المفلولة ، ومواساة الجرحى، وغير ذلك مما قضت به الظروف الحرجة . .

ولكن تضحيات النساء لم تفد المدينــة المحاصرة أكثر من تضحيـات الرجال ٠ فان ما أبداه الفرسان والسكان من شجاعة واقدام ، كان من شأنه ان يؤخر سقوط المدينة بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، لا أن ينقذها من السقوط ٠

وفي أواسط شهر ديسمبر ١٥٢٢ ، أصــدر السلطان أمره الى جيشه بمواصلة الهجوم على الاسوار ليلا ونهارا بلا انقطاع ، مهما تكن الخسائر ومهما تكن شدة الدفاع ٠ فشهدت أرض تلك الجزيرة المعروفة بجزيرة «الورود» مجزرة بشرية هائلة ، نزع المتناحرون فيها كل أثر للرحمة أو للشفقة من قلوبهم ٠

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ١٥٢٢ ، دعت برتا البقية الباقية من النساء الى الالتفاف حولها ، وصاحت بهن قائلة :

ـ لن أعود اليوم حية الى بيتي ، ولن يقع ولداي أسيرين في أيدي العثمانيين ٠ وسأكون بارة بالقسم الذي قطعته لزوجي قبل موته : أما أنتن ، فعلى كل منكن أن تختار لنفسها ولابنائها المصير الذي تريد !

وانطلقت برتا الى الاسوار ومعها الطفلان البريئان ، وظلت تقاتل والنساء من حولها طول النهار وطول الليل . . وكانت الاقدار قد حددت في صفحاتها تلك الليلة واليوم الذي يليها ختاما لتاريخ رودس كدولة

مستقلة ، فقد اقتحم العثمانيون الاسوار فى وثبة رائعـــة ، وتدفقت جموعهـــم من الثغرات التى أحدثتها مدفعيتهم ، ودار قتـــال مرير فى شوارع المدينة ٠

ورئيت برتا زوجة كونراد وهى تذبح طفليها بيدها ، وتتركهما فى أحد الابراج جثتين هامدتين ، ثم تشرع سيفها ، وتندفع كالوحش الغاضب وسط الجموع الملتحمة بالسلاح الابيض ٠

وغاصت فى لجة من الدماء ومرت على جثتها الممزقة مئات الاقدام٠
وهكذا ، فاجأت المرأة التركية رفاقها بشىء لم يخطر ببالهم ٠٠
وفاجأت حسناء رودس رفيقاتها بشىء لم يخطر أيضا ببالهن ٠

* * *

فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٥٢٢ للميـــلاد الموافقة لسنة ٩٢٨ للهجرة ، سقطت جزيرة رودس فى قبضة سليمان القانونى ، فضمها الى أملاك السلطنة العثمانية ، وكان الســلطان فى السابعة والعشرون من العمر ، أما البطل « فيليبه دى ليل آدام » الذى دافع عن جزيرته دفاع الأسود عن عرينها ، فكان فى الثامنة والخمسين وقد استقبله سليمان بالاكرام والاجلال ، وتم الصلح بين الخصمين على تسليم رودس ، وانسحاب الفرسان الى جزيرة مالطـــة ، حيث مات زعيمهم فى سنة ١٥٣٤ ، وقد خسر العثمانيون فى تلك المعركة وذلك الحصار مائة الف من خيرة رجالهم ٠

فهرس